

رواية

فى البر الغربى

تأليف

محمد عبد العليم



مكتبة جريدة الورد

بطاقة فهرسة

حقوق الطبع محفوظة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : رواية في البر الغربي

المؤلف : محمد عبد العليم

رقم الإيداع : 4193 / 2018 م

الترقيم الدولي : 1-034-834-977-978

الطبعة الأولى 2018



مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل
ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٢٧٨٧٧٥٧٤



تقديم

في البدء كانت الكلمة ومن الكلمة خلق الله
الكون ، إذ قال : كن فكان)

وبالكلمة تفعل المستحيل ، وعن طريقها
نعيد تشكيل الأذهان ، ونحارب الخرافات ،
ونقف صناديد أمام الظلم وأمام القهر وبالكلمة
تنتهي

حين قرأت تلك الرواية التي بين أيديكم
لأول مرة أصابني انبهار جم ، من قوة السرد ،
وجودة الحبكة ، حين أمسكت مسودتها الأولى
بين يدي لأول مرة ولم اتركها إلا حين انتهيت
منها ، الأحداث متتالية متتابعة لا تشعر ك بسأم
أو ملل ، سرد جميل منمق والوصف كاف ،

لا فائض ولا مختصر . تلك الرواية كتبت بقلم له مستقبل . أتشرف
أن أعلن عن مولده ، مولد كاتب إن استمر في الكتابة سيخلد اسمه
في الأدب المصري .

محمد راشد

كاتب وروائي فلسفي

الإهداء

إلى روح والديّ
رحمهما الله ...
« رَبِّ قِطْعَةٍ مِنَ الْفَرْحِ
لَمْ تَذُوقْهَا بَعْدَ ... »

ابنكما

محمد عبد العليم

المحامى

ملحوظة

جميع القطع الغنائية التي تخللت النص
الروائي هي من تأليف الكاتب

■ صعيد مصر / مغاغة 2000

يسكن البيت الحجري العتيق رجل في منتصف العقد السابع من حياته .. كأنه قطعة من البيت .. غضون السنين على وجهه تماما كالحجارة المعروفة للبيت القديم

البيت يقع في الجانب الشرقي من شارع الكنيسة القديمة بمغاغة، حوله سور متهدم بعضه من داخله مساحة واسعة مرصوفة بالحجر البازلت .. تطل عليها « برانده » من داخلها صالة فسيحة تفتح فيها غرف يمئة ويسرة .. تنتهي الصالة إلى درج يصعد إلى الطابق الثاني حيث القبو الزجاجي الملون الاسطواني وبه نوافذ تطل على كافة الأنحاء

هذا الشيخ السبعيني الأزهري .. خاتم القرآن حفظا في صباه .. ترك تعليمه الجامعي بعد وفاة والده ليعول أسرته .. هو المثقف واسع الاطلاع وصاحب العقلية التحليلية الرائعة والمنطق السلس الملىء بالإقناع في كل ما يتناوله في مختلف جوانب الحياة .

يعيش وحيداً في هذا المنزل إلا من رجل يقوم على خدمته ..
فاستحق وبحق كما أطلقوا عليه « فيلسوف الألم » ، .. إنه « الشيخ
بركات أبو العينين »

هناك ما يؤرق هذا الرجل الكبير ويقض مضجعه ويسهد جفنه
إذا ما مر خاطره بتلك المرأة التي وهبته حبها وكل ما تملك في الحياة
.. ولكنه تنكر لكل ذلك في لحظة واحدة .. فحينما جرفه الحنين إلى
الولد والنسل واستبد به ذلك الشعور فكر في الزواج من غيرها بعد
كل هذا العمر الطويل .. تزوج من فتاة صغيرة كانت تناديهما بجديتي
في ميوعة واحتقار وكان ذلك على مرأى ومسمع من الشيخ والذي لم
يحرك ساكناً إزاء جرح وسحق مشاعر تلك المرأة الكبيرة .. فقررت
المرأة الانسحاب في هدوء بعد عمر ودهر طويل إلى بيتها الأول وهو
منزل أبيها .

والغريب أنها ماتت بعد أيام معدودة من الإقامة في بيت أبيها ..
ذلك الأمر جعل الشيخ يعتبر نفسه المسئول الأول عن موتها ..
فراحت تلدغه عذابات الضمير بين الفينة والأخرى وتسلمه لآتون
من السعير المتقد في كيانه وروحه فيظل يسأل ويتساءل : هانت عليّ
بعد كل ذلك العمر كل ذلك الحب كل ذلك الإخلاص .. ماذا
فعلت ؟ .. لقد قتلتها ! .. ماتت بعدما انتهيت أنا كرجل في نظرها إذ

تغاضيت عن إهانتها ودهس كرامتها .. فهجرت قبري وتركتني وهي
محطمة الكيان تتداعى روحها حتى أسلمها ذلك إلى النهاية !

وتفيض دموعه ويكي بكاء موجعا يسيل له أقسى القلوب .

أراد الشيخ منذ زمن بعيد التكفير عن هذا الماضي الأسود
وذلك الذنب فألزم نفسه بالإنفاق في جميع أعمال البر والعطف على
الفقراء والمساكين .. وبناء المساجد .. وانقطع للعبادة والصلح بين
الناس .. استحال وبجد رجلا من الآخرة .. لقد أذهله ذنبه وجرمه
عن بهرج الحياة وزخرفها فزهد في كل ما فيها واعتزلها إلا وجوه
الخير والإصلاح .

إلا إن ذلك لم يجد مع الرجل .. رأي ذنبه أكبر وجرمه أعظم ..
فلم يسترح .. ولم يستنم ضميره .. إن كل نسمات الرحمة التي يرسلها
قلبه وأشعة الإحسان المنبثقة عن روحه إلى كل ما في الوجود لم
تنعكس رضا وسرورا على نفسه .. متى أشعر بالرضا ؟ .. متى أسعد
ولو هنيهة ؟ .. يا الله !! « .. هكذا كان يطارده ذلك السؤال .

صلى الضحى وتناول إفطاره وطالع بعض الجرائد

العناوين مكررة - تكاد تتطابق .. اغتصاب ! .. سرقة ! ..
اختلاس أموال عامة ! .. قتل ابن لوالديه ! .. القبض على قاض

وبحوزته مخدرات ! .. السجن للمعارض فلان .. الاعتقال لشباب
وبحوزتهم منشورات !! ... الخ ... الخ .

حدث نفسه : « نفسها هي العناوين .. هو الكذب الصراح
للمسؤولين .. نفسه هو الثالث المخيف للحاكم .. » الجهل - الفقر
- المرض « .. الثالث المتربع بأياديه الطولي العفية .. لافكاك منه ..
لا خلاص بعد » ..

وتذكر أحوال العالم والناس المليئة بالهم والغم .. والألم الذي
يرقد على الطرقات وفي البيوت والدور .. الألم بات مصاحباً للناس في
كل شيء وكل أوقاتهم . اليأس أضحى بقلب الطفل والرجل والشيخ
الكبير ..

وفي المساء عبث بأوراق قديمة توقفت عيناه على إحدى
الورقات .. أمسكها .. تفحصها .. إنها رسالة من زوجته الراحلة ..
كانت وقت كتابتها فتاة تحبه ويحبها وكانت هذه كلمات الرسالة
عزيزى « بركات » ربما هذه تكون آخر كلمات تقرأها لى .. عزم
والدى أن يزوجنى من ابن رجل ثرى فى الجبل الغربى .. وداعاً » .

اعتلجت الذكريات فى نفسه .. دفعه الحنين الجارف لتلك
السنين .. السنين التى عاشها بكل حياة الحضور الكامل التى لم يك
ينقصها سوى الخلود !! تذكر كيف أنه صارع من أجل الفوز

بمحبوبته وكاد الأمر أن يصل للتصادم الدامي مع عائلة محبوبته
ندت على وجهه زفرة أسى طويلة .. تنهد بقوة كأن سلافة روحه
تغادر جسده .. وتمتم ببعض أبيات للشاعر أحمد رامى :

ذكريات عبرت أفق خيالى

بارقاً يلمع فى جنح الليالى

نبهت قلبى من غفوته

وجلّت لى ستر أيامى الخوالى

ذكريات داعبت فكرى وظنى

لست أدرى أيها أقرب منى

هى فى سمعى على طول المدى

نغم ينساب فى لحن أغن

آلمه وقع الذكريات .. فأطرق فى وجوم وسهوم وصمت .

أثناء ذلك جاء لزيارته بعض شباب من عائلته - حيوا الشيخ
وسلموا عليه وجلسوا ..

لاحظوا سهوماً ووجوماً على الشيخ على غير عادته : فالرجل

دوما يخبئ أحزانه وهمومه بزاوية من قلبه ويعزلها تماماً عن شعوره في معاملاته مع الناس .. يأبى الألم العزيز لديه أن يوزع حزنه ومأساه على أحد .. فقلما يراه أحد حزيناً أو بادياً عليه الأسى، نظر « سلمان » للشيخ وسأله :

- مالك ياعمى ؟ .. أحدث شيء ؟ ..

- لا .. أبداً .. لا .. أنا بخير .. الحمد لله

في ضيق أردف « مأمون »

- ليس هناك خير .. الضيق يحاصر الناس .. والجميع مكبل .. قال « سالم ».

- مكبل بالخوف .. الخوف على حياته .. على لقمة عيشه .

- هز الشيخ رأسه وتأهب للرد وأردف قائلاً :

- مادام الحال كذلك ... فالخوف هو السيد .. هو الحاكم .. الخوف وليد الجهل ، والتخلف ربيب اللاوعى .. وقلعتهم الحصينة الفقر وثمرتهم المسمومة المرض !!

- حقاً ياعمى وبجد - أنت فيلسوف الألم !! .. أتقصد ياعمى الثلاثة ؟ .. الجهل والفقر والمرض !! ..

- نعم - الثالوث المدمر للشعوب والمجتمعات .. وعنهم يسرى الوهن والضعف .. وتصدر للناس الأوهام والمقولات السخيفة . القناعة !... من يرضى يعيش ! .. ادفن رأسك بين الرؤوس .

- أوليست القناعة كنز ياعمى ؟ ..

- احتد الشيخ وأشاح بيده وهو يقول :

- أى قناعة تكون مع الفقر ؟ ! .. أى قناعة مع متسول ؟

ربع الشعب تحول إلى شحاذين ، ويقولون لنا قناعة .. إنه الاستسلام .. الكسل .. التواكل .. انعدام الإرادة والعزيمة إنه فقر للروح ! .. إنه انكسار للنفس ! أنه اعتياد على مرارة الذل .. فالذل إذا حل بالنفوس فإنه ينسيها حتى وقت نزوله بها .

سالم وهو يوافق الشيخ :

- نعم .. صحيح .. الواقع كابوس مرعب .. أين الحرية ؟ ..

- ابتسم الشيخ في هزء ساخرًا

- الحرية - كلمة ملعونة ! .. ليس لها معنى في أجواء الجهل والفقر والتخلف واللاوعى .. والخوف والقهر والذل

سأل : مأمون

- ومن المسئول يا عمى ؟..

- الجميع مسئول .. لا يعذر من يلغى نفسه ووجوده .. إن الله ليأبى على الإنسان الرضا بالعجز وهو الصحيح المعافى .. أعنى عجز الإرادة وخور العزيمة .. البشر من يسطرون مصائرهم .. والإنسان وحده أسير فعله ..

- أوليس الله من كتب على الناس مصائرهم ؟ ..

- الناس من تحدد مصائرهما بأيديها .. ما يكتبه الله اختاره الناس ورضوه

- وما الخلاص ؟ ..

- فى العلم والتعليم الصحيح .. فى التنوير والثقافة والوعى .. عنده سيقهر الجهل .. ويتبدد الخوف .. وستولد شخوص قوية .. شجاعة .. مستنيرة .. ولكن ذلك مرهون بالإرادة والعزيمة .. مرهون بروح طواقة لعناق الاستقلال والحرية .. الروح الجريئة المثابرة .. مثل إرادة وروح وعزيمة جدى « همام الدرايسى » الذى واجه كل ما نتحدث عنه فى محيط مضطرب هائج ولكنه قاد السفينة ونجا ومن معه .. وخاض الصراع مع الظلم فى البر الغربى للنيل

السعيد .

وسأل « سالم » و « مأمون » وكذلك « سلمان » ..

- كيف ياعمى ؟ .. كيف فعل جدنا ذلك ؟ ..

اعتدل الشيخ في جلسته وراح يروى في أسلوب شائق وأخاذ ما وقع في الماضي البعيد وكأنه ينفخ فيه سحر بيانه فيبعثه من جديد حقيقة لعين الرائي وملء آذان السامع ما حدث في البر الغربي للنيل السعيد بمغاعة .

■ ■ سعيد مصر / مغافة 1850

أمام قصر الخواجة أمسك رجل بلجام الحصان « برق » وانحنى آخر كعلامة استفهام ووضع « الخواجة حبيب » قدمه فوق ظهره وهم مستويًا على ظهر جواده ، عند أقدامه لهث جريًا خمسة رجال يحملون بنادق .. سار الخواجة في ممر أوله عند بوابة قصره وينتهي شرقًا عند البر الغربي للنيل السعيد، تحف الممر من جانبيه مزارع الخواجة وأطيان وحداثقه الغناء .

انعطف يسارًا ووقف عند مخازن الدائرة ، انحنى ذاك الرجل ووضع الخواجة حذاءه ونزل على ظهره .. وأسرع آخر فأمسك لجام « برق » .. كان هناك خفير الدائرة يمسك برجل خزيانًا باكيًا .. نادى الخفير على الخواجة ونظر إليه .. قال الخفير بصوت متهلل مملوء بالبشر والسرور كما لو كان رسولًا يزف خبر انتصار الجيش

« يا سعادة البية ! .. يا سعادة البية ! .. إنه الولد « ابو العودين » الحرامي ! .. أمسكته وهو طالع على سور الدائرة الخلفى .. كان

حامل على ظهره كيلتين القمح وأشار الخفير إلى ثوب قديم بال
مربوط قد حمله الرجل على كتفه ... ابتسم الخواجة في رضا عما فعله
الخفير .. وأمر رجاله فأوثقوا رباط الرجل إلى جنع شجرة وسط
دموع وتوسل لا يشفعان أبدا . وبدا يصرخ بأعلى عقيرته : عندى
أولاد جوعى يا خلق ! .. مر عليهم يومان من غير زاد ! .. والله يابيه
يومين ! .. وأنا والله ربط بطنى من الجوع .. انظر يا بيه : اكشف عن
بطنى .. ستلاقى حبل من الليف .. حبل ليف ! .. ربط به بطنى »

« والخواجة حبيب » يقهقه فى نشوة غريبة وكأنه سكر من خمر
عتيقة وصرخ بأعلى صوته : انزع ثيابه يا ولد واضربوه على جسده
عريانا . تم تمزيق الثوب .. وكان ثوباً واحداً فقط .. وكشفت عورته
.. وانهاالت عليه ضربات العصى .. شج رأسه .. تفجر الدم منه ..
غطى الدم وجهه وعينيه .. ومن خلال نظره الغائم رأى صور الرجال
تهتز أمامه .. دقق مرة أخرى وإذ بالنور الذى قرأ على هديه الحياة
الحافلة

بالمرار والأسى

والآلام يتضاءل .. يخبو

.. ثم انطفأ إلى الأبد .

واستمر ضربه حتى أيقنوا

أن حركته انعدمت تماماً ..

أشار أحدهم بالكف عن الضرب

.. أمسك بيد الرجل ووضع يده أسفل أذنه

.. مات ! .. إنه ميت !! .. هكذا قال الرجل .

أمر « الخواجة حبيب » الخفير بحمل الثوب الذى به القمح

ليرجعه إلى مخازن الدائرة .. وحث باقى الرجال بحمل جثة الرجل

وتعليقها فى الشجرة ليكون عبرة لغيره .

بقية من ضمير لدى أحدهم فتعاطف مع جثة الميت فناجى

الخواجه متوسلاً وهو يلثم يديه وأقدامه « لا يا به .. لا .. اترك جثته

وكفى .. كفى ذلك .. » استشاط الخواجة غضباً وانهاه بالسوط فى

يده عليه صارخاً ومردداً : « يا ابن القحبة ! .. أنت من حرضته على

سرقتي .. أنت من حرضته » وأمر باقى الرجال فأوثقوه مكانه

وضربوه .. وعلقوا جثة القتيل فى الشجرة وهى تتدلى وتتأرجح بيد أن

الرجل الآخر طفق يصرخ قائلاً: « ارحمنى يابيه ! .. أنا رجلك .. أنا خادمك .. » ولكن كل توسلاته ذهبت مع الريح .. والخواجة يدفع رجالة نحو ضربه .. مزيد من الألم والعذاب لكى يستمتع الخواجة لذة «إنزال الألم بالعبيد !! .. هو أسماهم - بالعبيد ... وقف ناظراً لمشهد الجثة المعلقة ومشهد الموثوق إلى جزع الشجرة وهو يستمرئ كأنه مذاق لشراب غاية في الحلاوة والروعة .. وانصرفوا وتركوا الرجلين .. مربوط إلى جزع شجرة يصرخ باكياً .. وآخر جثة تتأرجح في حبل .

أذن الخواجة لأحد رجاله أن ينادى فى الناس بأن الخواجة قتل كليين أحدهما جثة معلقة فى شجرة والثانى مربوط فى ذات الشجرة والمنادى يذكر اسمى الرجلين

« أبوالعودين الحرامى » !! والثانى خادم الخواجة « الجبالى أبوخطوة » شريك الحرامى فى السرقة .

ألجم الناس الخوف وأخرسهم الرعب وشل أقدامهم الجبن .. فلم يجرؤ أحد على التحرك والمشى .. حتى حب الاستطلاع مات لديهم ... كل شئ مات فى نفوسهم .. هم لا يحتاجون سوى الدفن .

خرجت زوجة أبوالعودين تبكى وتولول تحمل رضيع فى حضنها وتمسك يدها بطفل حافي ممزق الثياب .. وعلق ثالث بثوبها

.. الأطفال يصرخون جوعاً .. والآن يصرخون خوفاً وفزعاً بصراخ وبكاء أمهم .. المرأة تجرى وتهول إلى آخر الدور والمنازل وتعود أدراجها .. في يقينها إن الموت الأسود في انتظار أولادها هناك في الغيطان وعند شجرة الكافور والساقية المهجورة .

الكل يرى قلبها المتفجع وعينيها الزائغتين والفرع يقفز منهما رأوا انكسارها وقلة حيلتها وأطفالها الصغار .. بيد إنه لا نخوة ولا مروءة ..

كذلك أهل « الجبالى أبو خطوة » وإن كانوا قد تبرأوا منه منذ أن صار كلباً للخواجة .. والكثير منهم ملأته الشماته والفرح وقالوا : ليشرب من نفس الكأس !! .. طالما سقى الناس من مر الخواجة .. كان يوماً يد الخواجة !! .. عض الخواجه اليد. لكن أولاده وإخواته طأطؤوا رؤوسهم وانكفأوا مذلولين مدحورين .. لم يتحرك رجل منهم قيد أنمله .. وكأن أخاهم سيحل وثاق نفسه ويرتد إليهم ظافراً غانماً .. أو سيعود إليهم جثة تمشى على أقدامها طالبة دفنها .. أو ربما تدفن نفسها .

الخوف الذى ترعرع نباته فى ظل جنبهم ورواه جهلهم وتعهدته أياديهم المرتعشة فتركته دون اجتثاث . زحف وتسلق على نفوسهم وغطي أجسادهم ودورهم .

ثمة طريق به بصيص من النور في آخره .. لمحته في هذه الوهدة إنه طريق أولاد « همام الدرايسي » فواز ، « همام » وباقي إخوتهم .. حثت خطاها لوجهتهم وهى تسير الهوينى فى ذل ولوعة وانكسار بين دموع أطفالها وصرخاتهم.

قتل الخواجة حبيب « أبو العودين » ومصير « الجبلاوى أبو خطوة » بين الحياة والموت .. وإن غلب الظن على موته .. ولكن أين القانون ؟ .. أين السلطة المنوط بها حماية الناس وبسط القانون ؟ .. القانون !! .. القانون هو الخواجة « حبيب » .. وكذلك هو السلطة ! إنه يستمد سلطته وامتيازاته من الخديوى حاكم مصر المحروسة والبلاد كلها حتى السودان .. قيل إن والد الخواجة جاء به محمد على باشا وكان مهندساً ماهراً فى شئون الرى وأصله فرنسي .. وهناك من يقول : إن والده يوناني - لا يعرف على وجه اليقين جنسيته بالضبط .. إلا إن المعروف عن ديانتة أنه يهودي وهؤلاء منحهم محمد على باشا امتيازات لم تمنح حتى للأصول التركية ناهيك عن البشوات والبكوات المصريين .

إذن الخواجة يمتلك الأرض وكذلك الفلاحين .. وهو المتصرف فى أرزاقهم وأقدارهم .. إنه الحاكم بأمره .

صوت بكاء المرأة ونحيبها اقتحم على أولاد « همام الدرايسي » دارهم : فنادي

« همام » سائلا : من المرأة الباكية ؟ خرج ابن أخيه « فواز » إليها ثم دخل بها وأطفالها إلى « همام » الذي قام إليها يربت على رأسها وعلى أطفالها موسياً في حنو بالغ وسائلاً « أيخصك أحد ممن كان المنادي ينادى عليه ؟ .. أهو قريبك ؟ ...

- زوجى يا أبو الرجال .. زوجى « أبو العودين » .. « أبو العودين » الغلبان مقتول !! ومرمى جثة في الغيطان .. غلبان ومقطوع ليس له قريب في البلد كلها .. والناس خائفة ! .. الكل خائف .. ولا واحد حتى تحرك خطوة ناحيتى وسألنى : مالك ؟ .. ولا واحد واسانى بكلمة يا « أبو الرجال » .. سألها « عثمان » هل عرفت سبب قتله ؟ .. والله يا « أبو الرجال » نحن وأولادنا بقى لنا يومين بدون أكل ولا زاد « طلع الرجل وهو يبكى واخذ معه جلباب قديم .. وقال : أنا لازم أتصرف .. « أروح أجيب أى حاجة لاجل الأطفال !! » ..

الأطفال بيصرخوا من الجوع وانا « وابو العودين » ربطنا بطننا لكن والله ما كنت اعرف إن « ابو العودين » في نيته مخزن الدائرة ... دائرة الخواجة !! .. والله ما كنت اعرف .. كنت منعتة .. نادى « همام » على أهل الدار وأمر بصنع وإعداد طعام على الفور .. وتوجه إلى المرأة قائلاً : يا أختى من أجل خاطري ليأكل الأطفال وكلى أنتى معهم .. وبعدها كله سهل بمشيئة الله .. سنذهب أنا والرجال

ونجيب أبو أولادك .. اطمئنى .. حتى لو كلفنا ذلك حياتنا ..
اطمئنى .. »

جاءوا بالطعام وأخذ « همام » يعطيهم بيده وهو يربت على رؤوس الأطفال ويقبلهم .. وظل هكذا حتى شبعوا وفرغوا من طعامهم .. حتى المرأة المكلومة حثها على تناول طعامها حتى أكلت مع أولادها ووضع يده وأخرج محفظته وأعطاهها ورقة مالية وهو يقول : « خذى يا أختى .. خذى .. حاجة بسيطة .. من أجل أطفالك .. وأنا مستعد في أى حاجة تحتاجين لها .. إنه من فضل الله » .. وشرعت المرأة تدعو له ودموعها تنهمر من عينيها .

وما لبث همام قائلاً للمرأة : « إرجعى إلى بيتك وأطفالك .. وسنأتى بزوجك الليلة بمشيئة الله .. سيكون في بيته الليلة .. وسيخرج من بيته على المقابر ... اطمئنى .. إرجعى إلى بيتك .. » خرجت المرأة راضية كما لو أن زوجها عاد إليها سليماً معافى بين سرور وفرح أطفالها .

لف الليل الوجود وتقدمت خطاه .. وتحرك « همام » وشقيقه « فواز » وكذلك شقيقهما « يونس » وبصحبة أولاد عمومتهم « زيدان » و « محروس » .

و « درغام » وباقي الجمع من رجالهم وشيعتهم .. وصلوا إلى

المكان حيث الشجرة المعلق بها جسد « ابو العودين » فانزلوه وخلصوه من رباطه . ووجدوا « الجبلاوي ابو خطوة » قد فارق الحياة هو الآخر . سبقهم النزيف فقضى عليه .. حمل الرجال جثة الرجلين وهموا للانصراف عائدين .. قتلهم الغيظ وأذلهم الحنق !! .. هاهما رجلان من جلدتهما قتلا وبين ظهرانيهم .. الامر كان أهون على الخواجة من ذبح خروفين .. لا لا .. بل قتل كلبين إجربين عقورين !! ..

كان « الدكرورى » غضوباً وحاداً ومندفعاً فقال متملماً : ابن الخنزير النجس !! .. لهذا الحد يفعل بالناس ؟ !! ..

أمسك « همام » بيده وضغط عليها في قوة هامساً له : إهدأ .. إهدأ .. لا يقدم ولا يؤخر الكلام .. ما تم قد تم .. لن يرجع الكلام من قتل .. اسكت يا « فواز » ... اسكت ..

مشى الجمع عائداً إلى المنازل والدور .. خيم على نفوسهم صمت مذل .. والحزن جثم على قلوبهم وجفونهم جبال .. بيد أن « همام » شغله شاغل آخر .. شاغل أكبر من وقع هذه الحادثة ومن آثارها .. إنه الخلاص !! .. الخلاص من هذه الوهدة ... من هذا السقوط !! .. يا لله !! .. كيف ؟ .. وراحت الأفكار تتصارع وتضطك برأسه حتى وصلوا إلى المنازل والدور . سلموا جثة « الجبلاوى أبو خطوة » إلى أهله .. ووضعوا جثمان « أبو العودين » في بيته .

تم تجهيز الجثتين للدفن .. وساروا بهما نحو المقابر رافعين المشاعل .. ليس هناك إلا رجال « همام » وشقيقه وأبناء عمومتهما .. حتى أهل وشيعة « جبلاوى ابو خطوة » تخلفوا عن جنازته إلا ثلاثة فقط منهم .

فرغوا من دفن الجثتين وعادوا أدراجهم إلى بيوتهم .. هجع الجميع إلى مخدعهم فناموا .. بيد أن هناك قلب لا يهدأ ولا يقر له قرار وعين جرحها السهد والأرق .. ورأس تطن وتعج بصوت الأفكار المتصارعة كأمواج الأقيانوس الهادر .. وسؤال لا يزل يلهبه ويطارده - كيف الخلاص ؟ .. النجاة !! ..

كان « همام » قد تعلم تعليم أولى وحفظ أجزاء من القرآن ويعرف القراءة والكتابة جيدا .. وبرع في الحساب بحكم تجارته في « الجمال » الواسعة في كامل القطر المصري .. حتى كان يجلب الجمال والنوق من السودان إلى مصر يعاونه في التجارة شقيقه « يونس » .. ولكن شقيقه « فواز » تفرغ لزراعة الأرض والحرث .. وشقيقهما الأصغر وهو « زين » طالبا بجامعة الأزهر .. وكان « همام » حريصا كل الحرص على أن يكمل شقيقه « زين » تعليمه في الجامعة مخالفا في ذلك رغبة شقيقه « فواز » الذى كان يريد أن يعاونه « زين » في شئون الزراعة وتربية المواشى .. قدر « همام » العلم وقيمته .. وكان يحترم المتعلمين والعلماء .

لاح « لهمام » العلم والتعليم .. إرتاح لهذا الخاطر وكأن وقع كلمة العلم أشعت بالنور في نفسه وكيانه .. وحدث نفسه قائلاً : العلم نور .. والجهل ظلمة ! .. الجاهل ضعيف ! .. الجاهل عدو نفسه ! .. نعم العلم ! .. العلم ! .. النور والتنوير !! ..

كان « همام » يحب شقيقه الأصغر « زين » حباً عظيماً ويقدره ويجله أيما إجلال ! .. ويناديه قائلاً : أستاذنا ومولانا « !! .. ويرد عليه « زين » : لا يا أخي .. أنت بمثابة أبي يا « همام » أنت من قام على تربيتي وتعليمي بعد وفاة والدي .. في إعزاز وتقدير يجيبه « همام » : ولكنك انت أرفع وأكبر مقاماً .. أعزك الله بالعلم وفضلك بالمكانة والشرف . قال « همام » في نفسه محتداً وهو يحكم قبضته في قوة : لازم نعلم الأطفال .. أولاد « أبو العودين » .. وغيرهم يتنوروا .. لازم يتسلحوا بالعلم والثقافة .. لازم .. بالعلم يكونون رجالاً أقوياء !! .. « كان » همام « رجلاً وجيهاً طويلاً ملفوفاً .. قمحاوى اللون .. منمق القسمات .. له عينان واسعتان سوداوان أخذتان للرائي .. وله ابتسامة حلوة قلما تفارقه .. ولا يعتريه الغضب أبداً .. ولا يغضب إلا للأمور الجسام . ترى عينيه قد اتسعتا أكثر ويبدو كالنسر الجارح .. وله حديث رائع جذاب يجذب القلوب إليه لحلاوته وصدقه ولين كلامه .. عقد العزم والنية على تنفيذ فكرة التعلم لأبناء بلده .. وسيبدأ تعليم الأطفال على يد شقيقه « زين »

وصاحبه « الشيخ طه » ..

عندها سأل « سلمان » الشيخ بركات : وهل نفذ فكرته ؟ ..
الشيخ بركات « وهو يتسم متلاً لأ الوجه مشرقاً :

- نعم !! ..

وسأل سالم : « لا بد أن صعوبات واجهته ؟ ..

- بالطبع !! .. وصراعات رهيبة !! ..

- كيف واجه جدى هذه الصراعات ؟ ..

- اصبر !! .. اصبر !! .. وسينكشف كل شئ .. لا تتعجل .

ثم واصل « الشيخ بركات » روايته بأسلوبه الشائق والممتع
والهادئ كالنهر الذى يتهدى إلى مصبه فى يسر وسهولة وسخاء .

(2)

اغتاظ الخواجة

«حبيب» وأكل الحقد

قلبه علمه إن أولاد

«همام الدرايسي» جاءوا

بجثة القتيلين .. وتحرقت

نفسه البشعة وتذكر جرأة

أولاد «همام الدرايسي» حينما

قاسموه مياه المسقى الفاصل بين أرضهم وأرضه أزعجه كثيراً الأمر

.. وبات يتحين الفرصة ويتربص بهم الدوائر لكي يقعوا في شركه

ومصيدته التي أعدها للصيد الثمين .. حاول مراراً لكنه أخفق ..

أولاد «الدرايسي» لهم عصبية كبيرة .. هم أصحاب أراضي

وأطيان وتجارة جمال واسعة يديرها «همام» وليسوا في حاجة إلى

المال لبيعوا له أرضهم المقابلة لأرضه .. احتار الخواجة .. امتعض

.. ولكنه كان داهية يعرف بالضبط قدر كل رجل في أولاد

«عبدالعاطي» يحسب «لهمام» ألف حساب ودوماً يردد في

نفسه : « هذا الفلاح لا يخطئ أبداً .. أتمنى لو أنه من رجالى .. كان

أغنانى عن الجرايع المعتوهين حولى ..

« همام » ليس بالرجل السهل لا يمكن أحد أن يدرك قصده ومراميه .. إنه بعيد المدى .. ويأبى كبر نفسه إلا إن يعود قائلاً : « وعلى العموم هو فلاح .. وله حدوده .

وفي محاولاته للنيل من أولاد « الدرايسي » أوعز لصاحبة ابنته « ماجى » وتدعى « زهرة » وهى ابنة شيخ البلد إن تشغل فكر وبال « زين » طالب الازهر حتى يقع فى عشقها وتفشله فى دراسته .. ولكن ارتد السحر على الساحر فعشقت « زهرة » « زين » ولم يشعر هو بها بتاتاً ولم يعرها ثمة عاطفة مطلقاً .. كان يحتقرها ويحتقر ابيها رجل الخواجة .

ومن كثرة حديث « زهرة » عن عشيقها لصاحبتها « ماجى » حمل الأخيرة فضولها وشوقها لرؤية ذاك الفارس .. وعمدت « ماجى » على سؤالها

- وهل يحبك مثلما تحببته أنت ؟ ..

- طبعاً .. يموت فى حبى !! .. يذوب صبابة !! ..

عادت « ماجى » فى خبث « لا .. دعينى أرى الأمر بعينى لكى أصدقك .. ارتبكت

« زهرة » وتغير لونها واستبدا بها القلق والحيرة ، ففطنت « ماجى » إلى أمرها وأردفت قائلة : اثبتى لى أنه يبادلك حبك !! ..

قالت « زهرة » فى تلثم وارتباك

- كي كي كيف ؟ ..
- تقبلينه أو يقبلك !! .. أو قبلات متبادلة
- لا لا .. غير ممكن .. إنه شيخ أزهرى !! .. لا .. لا ..
- حدجتها (ماجى) فى سخرية وقالت هازئة :
- أو ليس هو برجل ؟ .. أو ليس عاشقاً ؟ ..
- نعم .. نعم .. هو رجل ! .. هو عاشق ! ..
- إذن أيتها المغفلة سينسى أزهره .. وسينسى ساعتها نفسه وخالقه !!
.. إن كان عاشقاً فعلاً على حد زعمك .. شعرت « زهرة » بمغزى فى حديث صاحبها يرمى للتشكيك والتكذيب فانتفضت بكبرياء وزهو :
- نعم ! .. إنه يذوب هياما فى غرامى !!.
- أنا على يقين ولكن أرى بعينى وأسمع بأذنى .
- سأريك وأسمعك .. غداً عند البر الغربي ميعاد سفره إلى مصر المحروسة وسأقابلة قبل أن يصل إلى المراكبى فى الطريق ..
- قالت « ماجى » فى فرح إنه الحديث الصحيح .. هو ذلك الرأى الصائب .. وأنا سأختبئ بالقرب منكما خلف أشجار الورد البلدى عند حافة حديقتنا لأرى وأسمع

وراحت « ماجى » فى خبث ومكر تحملها على الأقدام على ذلك الموقف وهى تقول لها : - انا على يقين من حبه لك .. أنت رائعة الحسن يا « زهرة » .. لا يوجد فى مغاغة كلها من فى جمالك .. عيونك الحلوين يذوب فيهم أى رجل .. حتى الراهب فى معبده .. انتشت « زهرة » طرباً لوقع كلمات صاحبته وعرها الأطرء وأومأت بالإيجاب موافقة وهى تقول فى ثقة :

- خلاص .. سأقابله فى الغد بعد الظهر مباشرة ..

- لكن يا « زهرة » تأتى لى أولاً قبل انتظاره ومقابلته .. وأمشى انا وانت من هنا .. اتفقنا ؟ ..

- اتفقنا ياعزيزتى « ماجى » .. اتفقنا

جاءت « زهرة » إلى صاحبته ومشيتا سويا قبل اللقاء المرتقب بين الحبيبين وصلا إلى المكان المحدد .. فراحت « ماجى » تختبئ خلف أشجار الورد وتراقب عن كثب ما سوف يحدث .. ووقفت « زهرة » ترنو حيث القادم من ناحية منازل البلد .

الوقت يمر و « ماجى » فى ترقب وشوق بيد أن القلق يساور « زهرة » وتتمنى لو لم يأت

« زين » .. إنها لا تدري ردة فعل « زين » على تصرفها تجاهه .. استبد بها القلق وساورتها الظنون .. وهى على هذه الحال بدا « زين »

من بعيد .. وأخذ في الاقتراب شيئاً فشيئاً .. طربوشه الأحمر وفوقه
عمامة بيضاء .. والجبّة الازهرية وتحتها القفطان والصدريّة
الرائعة!! .. يمسك بيده حقبة جلدية .. ليس بالطويل الفارع الطول
.. وليس هو بالسمين ولا النحيف .. وجهه أبيض مشرب بحمرة ..
وعينه واسعتان عسليتان .. يسير متهادياً في سهولة دون تكلف ..
توشى ملامحه بالرجولة والقوة والمروءة .

اقترب حتى كان على بعد خطوات من « زهرة » .. نادى عليه :

- يا شيخ « زين » .. يا شيخ زين ..

و« ماجى » تراقب من مخبأها وعيناها تلحقان الشاب من رأسه
حتى اخمص قدميه .. ووقع إعجابه في نفسها وحدثت في نفسها : لك
حق يا « زهرة » !! .. ما أروع !! .. ما أجمله !! ..

نظر « زين » إلى صاحبة الصوت في تثاقل وهو لا يزال ماشياً
دون توقف ودون ثمة اهتمام وأجابها في تجاهل وإنكار ..

- من أنت يا آنسة ؟ ..

- ألا تعرفنى يا شيخ زين ؟ .. أنا « زهرة » !! ..

- أشاح لها في ضيق :

- لا أريد أن أعرفك .. إذهبي لشأنك ..

ملأت الفرحة قلب « ماجى » وكاد قلبها أن يقفز من بين ضلوعها .. لقد امتلأت إعجاباً بهذا الشاب .. وانتظرت لترى ردة فعل صاحبته « زهرة » ..

صعقت كلماته « زهرة » فانهارت وتبعثرت وفي هستيريا جرت خلفه وجذبت يده وهى تنهال عليه سباباً وشتماً .

- انت لا تشعر ! .. أنت لا تحس ! .. أنت ..

قفزت « ماجى » نحوهما وصرخت فى « زهرة » وهى تقول وتردد:

- إخرسى !! .. إخرسى !! .. إياك إن تلفظي ثانية .. إياك ..

وجذبت زهرة من ذراعها ودفعتها بعيداً فى قوة ، ونظرت إلى « زين » وهى تخاطبه فى رقة بالغة ونعومة متناهية فى صوت مرتعش النبرات له وقع موسيقى حلو وعذب وفى لكنة افرنجية ..

- بردون مسيو « زين » !! .. بردون أستاذ « زين » .. انا آسفة !! .. بالغ أسفى يا أفندم !! .. بالغ أسفى يا أفندم !! ..

وقف « زين » مشدوها .. أخذته عينها الرائعتان نحو عالمها الساحر .. وجهها البرونزى فى حمرة الورد وغمازتين على وجنتيها جعلتا وجهها كله ابتسامة .

وامتدت ظلال الابتسامة على الوجود من حول « زين » .. فغشى

السرور كل شيء .. مس قلبه ما يشبه النشوة فسرت في كيانه ودمه
وخالطت روحه .

أسلم نفسه للجمال فأسره .. وقف ناسكاً متبتلاً في معبد الحسن
يؤدي طقوس الولاء لعزة وسلطان الجمال .. خشع بصره .. سرت
قشعريرة في بدنه وكيانه .. حاول اصطياذ الأحرف .. الكلمات ..
لكنها تبخرت .. والمعاني تلاشت .. عاد ثانية للملمة رشده وجنانه
دون جدوى .. تتمم .. غمغم بكلمات متقطعة غير مفهومة ومبهمة
.. عرفت من حركة شفثيه المرتعشتين ما يقصده .. بادرت به مشجعه
على الحديث :

- افكر إنها أول مرة لي تشرفني بمقابلتك ؟ ..

قال في صوت متهدج وخجل وهامسا :

- الشرف لنا ياهانم !! ..

وفي تودد وملاطفة بادرت به :

- معقول بلدنا « مغاغة » فيها شباب بالروعة والحلاوة التي
أراهما الآن ؟ !!

تشجع زين على أثر مغازلتها ، فردها لها :

- طبعي ! .. لأن الجمال كله الذي اراه الان يقيم فيها !! ..
وأكيد روعة حسنك ياهانم زينت كل شيء في « مغاغة » !! ..

استحسنت منه عذب حديثه وحسن أدبه ورقة كلماته قائلة :

- وأيضا شاعر !! .. ياترى سنراك ثانية ؟

- أكيد يا هانم !! .. أكيد ..

وفارقا بعضهما بعد نظرة طويلة .. ومشى « زين » وهى لاتزال ترنوا إليه وإلى مشيته وخطواته الواثقة المطمئنة ..

كانت « زهرة » غائبة عن المشهد الذى انتهى منذ لحظات .. فقد وقفت على بعد خطوات منهما معقودة اللسان تأكل الغيرة قلبها وكيانها .. ومن فرط الذل والإهانة اللتين لحقتا بها شرعت تبكى فى مرارة ووجع أخذت « ماجى » تهدئ من روعها ووضعت يدها على كتفها إلا أن « زهرة » رفعت يدها فى قوة وعنف وانتفضت كالأفعى وهى تردد :

ابتعدى عني .. ابتعدى عني .. أنا من الآن لست صاحبة لك ..
لست صاحبة لك ..

ومالبثت تاركة « ماجى » وجرت مهرولة إلى منزلها .

رجعت « ماجى » تخطو وحيدة وقلبا يرقص فرحاً .. ويدق فى قوة لأول مرة له فى حياته .. أهذا هو أول الحب ؟ ! .. سألت نفسها « ماجى » .. قلبها يدق فى عنف فرحاً وطرباً ونشوة وخوفاً وظنوناً وترقباً لما هو آت فى مقبل الأيام .

أرسل الخواجه

« حبيب » في طلب

(3)

الشيخ « زيدون » فجاء

على الفور وقف الشيخ

إمام المسجد الكبير

والخواجه جالسا واضعا ساق

على أخرى .. وخاطبه الخواجه : « ما

جزاء السارق في شرعك يا شيخ زيدون ؟ صمت الشيخ برهة وأدرك

مرام الخواجه وفطن لمبتغاه وأجابه « قطع اليد دون تردد ... وإن

كانت السرقة من مال الحاكم .. تكون القتل دون رحمه ..

- من الحاكم يا شيخ « زيدون » ؟ ..

- سيادتك طبعاً .. معاليك يا بيه .

ثم يخر الشيخ زيدون مقبلا يد الخواجه ..

- تقصد يا شيخ جزاء « لآبو العودين » الحرامى ومن حرظه

على السرقة ؟ .

- طبعاً يا بيه اقصد « آبو العودين » .. و « الجبالى آبو خطوة »

وعاد الخواجة سائلاً :

- وما رأيك فيمن حلوا وثاقهما وجابوهما من الغيط ؟ ..
- هؤلاء مجرمون !! .. فسقة !! .. ما أرادوا إلا فتنة وفساداً كبيراً .. أنا والله ... والله .. وحياة سعادتك وهى عظمية .. أنا رفضت الصلاة على هؤلاء المجرمين ..
- ومن صلى على هؤلاء المجرمين ؟ .
- ولد حقير !! .. طالب فى جامعة الازهر .. اسمه « طه » ..
- من هو « طه » ؟ ..
- معاليك الولد « طه » ابن « زعفران » .. زعفران الحارس لأرض معاليك .. ابنه تعلم وتربى من خيرك يا بيه .. ناس سافلة .. ناس ناكرة للجميل والمعروف .. وتعض ايد سيدها يا بيه !! ..
- اسمعنى يا « شيخ زيدون » : .. ثم صمت برهة وهو يتفحص الشيخ وحدث نفسه : « أنت ألعن منهم يا ابن اللئيمة !! » .. اسمعنى يا شيخ زيدون : « خطبة الجمعة لا بد أن تكون عن موضوع القتلين أنت تعرف بالطبع ما ستقوله للناس ؟ ..
- أى نعم .. اطمئن يا بيه

أخرج الخواجة « حبيب » ورقة مالية كبيرة أعطاها للشيخ

زيدون: أمسك يا شيخ زيدون .. ليس بخسارة فيك !! ..

خطفها من يده في سرعة البرق وهو يردد « ربنا يحفظك يا بيه »
ربنا يحفظك .. يا ابو قلب طيب .. يا مؤمن .. يارباني « وما لبث
لاثماً أيدي الخواجة .. واستأذن ليخرج وهو يتراجع بظهره نحو
الباب .. اثناء تراجعه تعثرت قدماه بالكلب « ريكس » فوق فوق
الكلب انقض عليه فمزق وجهه وكتفه وصدره .. صرخ الشيخ :
الحقني يا سعادة البيه .. الحقني .. وهو يتألم : آه ! .. آه .. عنيا ..
وجهي .. وجهي اتقطع .. »

والخواجة يضحك ويقهقه في سرور بالغ .. ثم نادى على الكلب
« ريكس » .. ترك « ريكس » الشيخ وجرى نحو صاحبه وراح الشيخ
زيدون بصوت غلب عليه الألم : اتركه يا بيه .. اتركه .. أنا فداء سيدي
« ريكس » !! ثم خرج يللم جراحة ويمسح الدم عن عينيه حتى
يمكنه رؤية الطريق أمامه .

الخواجة في فرح بالغ ولريكس : برافو !! .. برافو « ريكس » ..
إوعى الحيوان يكون أذى أسنانك .. أو يكون خربشك .. حبيبي
« ريكس » .. ويربت على رأس الكلب في رفق وحنان .. وما لبث أن
أخذه في حضنه وضمه في قوة .

وهو يضم كلبه إليه يحادثه : أنت صاحبي الوحيد .. لا أثق إلا

بك .. كل هؤلاء الفلاحين الأجلاف سفلة !! .. هم لا يجيدون إلا عمل العبيد .. خدمة الأرض ! .. خدمة المواشى ! .. كله من أجلنا نحن .. نحن أسيادهم » .. وما لبث أن جحطت عيناه وهم واقفا وسكن يتدلى ذراعا به جانبه كأنه يتفتت في الزمان والمكان ، تذكر « طه » ابن زعفران .. وتذكر « زين شقيق » همام » .. شهق في قوة ثم ندت على وجهة زفرة أسى طويلة وحدث نفسه قائلاً « : هؤلاء الأجلاف وصلوا للجامعة !! .. بدأوا يتعلمون .. علم ! .. تعليم .. نور ! .. تبا !! .. لا بد أن يظل جميع الفلاحين في جهل مطبق .. لا بد .. لازم يفضلوا مواشى !! حمير » .

أرسل على الفور في طلب « زعفران » .. فأتى الرجل ... ووقف أمام الخواجة . كان يرتعد وناكس الرأس في خزي وانكسار ... سأله الخواجة : « لك ابن في الجامعة .. صحيح ؟ »

- عبدك وخدامك يا بيه ! « طه » ابني طالب في الأزهر ...

- صرخ الخواجة : لم أعرف بالأمر من قبل .

- إنه ليس سرّاً يا سعادة البيه الناس كلها تعرف ...

- كل الناس تعرف لكن أنا الوحيد المغفل »

- العفو يا بيه ... « طه » مهما كان مثل ابنك ..

انفجر الخواجة غاضباً وانهاه ضرباً على الرجل وركلة فأطاح به

أرضاً

وهو يصرخ : « ابن من يا حيوان ؟ !... انه كلب مثلك !! .. ابن من يا حيوان ؟

والرجل يردد في ذل وانكسار : « لا العفو يا بيه .. العفو ... والله ما قصدت يا بيه !... والله ما قصدت إن » ..

راح الخواجة يحذره ويتوعده : « اسمع يا ابن الكلب .. اختار لك واحدة من اثنين - إما ترك ابنك للجامعة وإما ترك عملك في أرضي ... روح غور في ألف داهية » ...

خرج الرجل خزيان باكيا وهو بين أمرين كلاهما مرّ وثقيل كالجبال إن ترك عمله لدى الخواجة معناه ترك ابنه الجامعة من أين ينفق على ولده ؟ ... ولو اختار العمل عند الخواجة - فلماذا العمل وقد فقد معناه وخسر من يعمل ويكد لأجله ولده الذي انتظره طيلة حياته ورسم له صورة الشيخ الواعظ في مخيلته أو المعلم المرتدي للبدلة الأفرنكي والطربوش فوق رأسه كالتاج المنير كل ما تمناه وما رسمه سيضيع هكذا ... هكذا بين يقظة عين وغفلتها!!... ظل طوال عمره كالزراع الذي هيا أرضه وجهازها وأعد البذور الجيدة ثم تعهدا بالرى والاهتمام فكبر النبات واینع وأزهر وعندها أصابه ما أصابه فأصبح أثرا بعد عين خطر له

ذلك وبرق كالوميض فتناثرت نفسه كشظايا الزجاج تناقلت خطاه فتعثر في همومه وأوجاعه وهرمه ... فزحزح قدمية الثقيلتين نحو داره.

أرسل « زعفران » إلى ابنه « طه » بالقاهرة مكتوباً تناول كل ما حدث بينه وبين الخواجة - وختم خطابه بسؤاله لابنه : دبرني يا ولدي - ماذا أفعل ؟

أجاب « طه » على سؤال والده ولكن بصوت عالي ومرتفع ازعج صديقه « زين »

وصرخ : في الجحيم العمل لدي الخنزير !! .. في الجحيم يا ابن الكلب انت وعملك ... لا ننكسر أبدا ... لا يا أبى ... أهون على أحمل الجبال على كتفي ولا تنكسر أبداً

جاء « زين » مسرعاً إلى صاحبه من داخل المنزل وخطف المكتوب من يد صديقه « طه » وقرأه ... وراح يربت على كتف صاحبه ثم أخذ الكتف الأخرى وهزه في قوة قائلاً في احتداد « ولا يهملك يا صاحبي أرضنا هي أرض عمي « زعفران » ... يشتغل في أرضنا ويلعن أبو الخنزير !!

اسمع يا « طه » ... اسمع يا اخويا وصاحبي : أنا وانت نقسم اللقمة ونقسم الهدمة أنا وانت روح واحدة ولبست

شخصين»...

كان « طه » رقيقاً وعاطفياً فجرت دموعه تأثراً من وقع كلام «زين» فتأثر صاحبه فأخذه في أحضانه وهو يربت على ظهره في حفاوة وود.

رد « طه » : « تسلم لى يا « زين » تسلم لى يا صاحبي

جلسا وصمتا برهة وأردف « زين » قائلاً:

- أنا حدثتك بأمر الفاتنة التى رأيتها فى بلدنا ؟..

ضحك « طه » وهو يقول :

- نعم يا سيدي ... ذكرت أمرها مرتين لكن السيرة حلوة معاك !!!

- إوعي تكون ..

- لا أعرف لا أعرف .. لكن من يومها ورؤياها لا تفارقني هي معي فى حركاتي وسكناتي وحتى نومي .

- خذ حذرك يا « زين » إنها إبنة الخواجة « حبيب » !!

- أعرف يا صاحبي أعرف

ثم رنا « زين » وأذهله التفكير عن الوجود وهام هناك حيث عالم «ماجى» وخياله ورؤاه وسحره .

ونظر « طه » إلى صاحبه مشفقاً عليه وفي قلبه شئ من الخوف وكأن نبوءة أوحيت إليه من الغيب تظهر جراحاً ومآسى في مقبل الأيام .. وشخص له صديق عمره في طبي الغيب مريضاً لا شفاء له . وإذ بعينه تفيضان بالدمع تأثراً وإشفاقاً ورحمة بصاحبه مسح دموعه وهمس لنفسه وغمغم قائلاً: « اللهم اجعله خيراً » .

لم تكن « ماجى » أسعد حظاً من الفلاحين في علاقتها بأبيها ... كانت تفتقد إلى وده وحنانه وعطفه ... إلا أن قلب الرجل بمنأى عن هذه المفردات الغريبة لديه هى مجرد بورترية في معرض فنان يتباهى بعبقريته فى إبداعه ... ربما يكون هناك شعور وتواصل وجدانى بين الفنان ومنتجه الإبداعى ... لكن الخواجة ... لا إنه رجل بلا قلب ... بلا ضمير .. وبلا روح .. هو يحيا مجرد حياة !! .. وجود كوجود الجماد ... إنه صاحب نفس سوداء مظلمة لم ينفذ إليها شعاع من أشعة الرحمة ولم تهب عليها نسمة من نسيمات الإحسان .

لكم اجتهدت (ماجى) أن تجعله أباً لها او حتى تصدق أو

تتوهم لكن كل جهد ذهب سدي ... بقى الرجل المتسلط الذى يمتلك قطعة من الجمال فى بيته وفى قصرة . ليس فى دستوره كلمة عيب .. ولو تباع هذه القطعة التى يكتنيتها ما تردد ثانية واحدة .

عاشت فى قصر أبيها مقهورة .. كأنها اسيرة لديه ... ربما أن العدو يرق قلبه لحال الأسير المغلوب على أمره ... إلا إن « ماجى » دون ذلك .

فتحت عينيها على الحياة دون أم لها ... بيد أنها لم تسطع أن تسأل عن أمها ... ذات يوم ومنذ سنوات سألته عنها قابلها بثورة عارمة من الغضب والحق والجنون وسيل من السب والقذف والطعن فى شرفها ... ليته قال : أنها ماتت !! كان ذلك أهون عليها .. لم يقبل ذلك ... ولم يقل أنها على قيد الحياة . ليس لها أهل إلا خالة تعيش فى « باريس » ولم ترها سوى مرة واحدة فى حياتها .. كانت « ماجى » طفلة صغيرة برفقة والدها فى إحدى زياراته لها . هى المرة الوحيدة والأخيرة بعدها كانت مراسلات ومكاتبات بينهما دون لقاء يجمعهما سويا... وسألتهما « ماجى » عن أمها ولم تجد منها إجابة شافية ... وبعد إلحاح من « ماجى » قالت خالتها : أسألى أبأك عنها ... وأغلقت كل الأبواب بعدها فى وجه هذا السؤال حتى الخدم فى قصر والدها اختلت بهم وسألتهم .. كانوا يهربون جميعا مرعوبين دون أن ينبس أي منهم ببنت شفة . أى عذاب تحيا معه هذه الفتاة

الريقة الحسنة ؟ .. كانت « ماجي » أتعس من الفلاحين اذ عاشت ولا تزال مع ذلك الرجل - أبيها .

اودعت سر أمها بجانب معتم من نفسها ... إلا إن شيطان نفسها الأثم كان يعكر عليها صفوها ويحسدها على ومضات السرور العابرة فيأبى إلا أن ينغص عليها هذا الصفاء ويقلب سعادتها إلى حزن رهيب .. فيذكرها بين الفينة والأخرى بأمرها وسرها الغامض المجهول .

طاف بها ركب الليالي وهي بغرفتها وحيدة وبصرها متعلق بنجوم الليل من خلال نافذة مطلة على حديقة القصر ... وقذفت بها الافكار في أودية شتى فأوجعتها وأبكتها كثيرا .

رنا بصرها إلى القمر الراقد فوق النافذة فقفزت في صفحة الفكر صورة الشاب « زين » - طغت الصورة لديها على جمال القمر الساهر من بداية الليل ... وضعت يدها على قلبها الذي يدق في عنف ... هدهد روحها شئ من السرور اللحظي وأخذت تدقق في صورته الجاثمة في خيالها ... هالها طلعتة الوسيمة وملامح الرجولة الطاغية ... وحسن منطقة وأدبه ... وطنت برأسها كلماته : الجمال كله الذي أراه مقيماً بها !!! ...

ثم عبارته الأخرى : أكيد روعة حسنك يا هانم زينت كل شئ في

« مغاعة » !! .

طربت للوقع الموسيقى الذى عاودها لوقع كلماته
وحدثت نفسها .

- ترى هل أراك ثانية أيها الفارس ؟ ...!

- قلت لى : أكيد يا هانم !..

- ترى أتوفى بوعدك الذى أكدته ؟.

وتذكرت صاحببتها « زهرة » ... انتابها شئ من القلق ... فهى
تدرك جيدا مدى آلام جرح الانثى فى أنوثتها وكسرة قلبها وخاطرهما
.... كانت « ماجي » فتاة رقيقة وناعمة وعاطفية وقد شعرت بآلم
صاحببتها وإن كانت الأخيرة هى وحدها المسئولة عما جرى ... فقد
صورت ما لا وجود له ... وعاشت فيما نسجته من أكاذيب ... إلا
أن كل ذلك لم يمنع لدى « ماجي » عطفة الرفق بصاحببتها والحنو
عليها وعزمت فى قرارة نفسها أن ترسل لصاحببتها وتناقش الأمر
معها وترضيها .

كل ما خطر على « ماجي » وصل بها إلى أذان الفجر ... فعانق
الوجود ذلك اللحن المسلسل الرقراق ... وحملته إلى أذنيها نسمات
الصيف البليلة ... كان الصوت الشجي الذى أتى فجأة من عالم
علوى فبعث معه السمو الذى يعانق الروح ويطهرها ..

« الله أكبر ... الله أكبر »

أطرت السمع للنداء ... فشفت نفسها هذه الروحانية الفطرية .

وإذ بها تردد : الله ! ... والله ما أجل وأروع ذلك !!!

نطق بها لسانها مأخوذاً بطغيان الشعور المنداح والمنساب لوقع ذلك السمو ... نطقت الأذان ورددته خلف المؤذن وهي المخالفة لعقيدة هذا الأذان .

كانت « ماجي » تحب الإسلام وشعائره وطالما قالت إنه الدين الوحيد الذي حرر الإنسان وأرسى العدل والانصاف بين جميع البشر .

ثم أغلقت نافذتها وأسلمت نفسها للنوم ... لم تستطع حال بينهما الأرق والفكر وانتابها من جديد .

* * *

دار أولاد « الدرايسي » اجتمع « همام » وشقيقه « فواز » و« يونس » وأولاد « الجبالى ابوخطوة » وأبناء عمومتهم وآخرون من أبناء مغاغة .

وشرع « همام » متحدثاً بعد أن هيا النفوس لسماعه وأعدها لكي تتشوق لحديثه : أسوأ شئ في الدنيا الجهل ... الجهل ظلام ...

والعلم نور ... الجهل يهدم ويخرب .. والعلم يرفع ويعمر .. ما حل بالرجلين « ابو العودين » و « الجبالى » بسبب الجهل .. لأن ضعفنا نتيجة الجهل ... الجاهل ضعيف بطبيعته لأنه لا يدري ولا يعى .. لا يدري كيف يواجه ما يحيط به لأنه يفتقر لثمة قوة في نفسه ... أو لأن بجهله لا يمكنه معرفة القوة في ذاته حجاب الجهل يخفى عنه كل شئ ... كل ما في نفسه أولا .. وما لدى عدوه ثانيا ... ولو تكشف عنه حجاب الجهل لعلم أن عدوه أضعف ما يكون .

ثم صمت « همام » برهة وتفحص وجوه الجمع ليرى أثر حديثه لديهم .. الجميع أطرق السمع مصغين في اهتمام بالغ وكأن على رؤوسهم الطير ... أكمل حديثه بسؤاله لهم : « ما قولكم فيما قلته ؟ » .

أجاب رجل يدعى « المنشاوي » وهو الشهير « بابو العريف » :
كلام زين لكن الموضوع يعنى ... يعنى

رجل آخر : يعنى ولا يعنى .. اسكت يا ولد يا « ابو العريف »

....

انت دائما تطلع في كل حاجة القلط الفاطسة اسكت

ثالث : كيف نعمل نحن من أجل شفانا من الجهل الاسود ؟ ..

رباع : اتحتاج لفكاكه هى يا « فيلسوف » ... لا أعرف ... لما

نسأل ابو الرجال ... طيب قل لنا يا ابو الرجال - كيف؟ ...

- طبعا التعليم حكر على أولاد البهوات والبشوات والأجانب
لكن أولاد الأرض ... أولاد الطين المصرى والنيل الغلابة حرام
....

حرام عليهم التعليم إلا الفلثة .. ولا يوجد إلا معهد أزهرى يتيم
فى المنيا ... وحتى لو الطفل ختم القرآن أهله يا ولداه ما يقدرُوا على
مصاريف سفره وإقامته هنا ... لو حتى أصلا اطمأنوا عليه فى الغربة
والبلاذ البعيدة . سنبداً بتعليم أولادنا جميعا هناك ... نعلمهم بنفسنا
نحن ... المكان موجود عندنا .. الدار القديمة بتضم خمس غرف
واسعة كل غرفة لحوالى ثلاثين طفل ... وجميع اللازم سأقوم به
من نظافة المكان وتجهيزه وأخى « زين » وصاحبه « الشيخ طه »
ومعهما « مخيمر » وإن شاء الله سأدفع راتب مدرس رابع ...
والمشرف على الموضوع من تختارونه أنتم .

الجميع فى صوت واحد : أنت .. أنت طبعا يا أبو الرجال !!!.

- وأنتم شركاء معى .

اندفع «فواز» كعادته وأقسم قائلاً : وأقسم بالله ثلاثاً .. أنا عن
نفسى تبرعت بمحصول فدانين لمصروفات المشروع ... فدانين
يصبحوا وقف على موضوع تعليم اطفالنا .. يا سلام يا أولاد لما

أولادنا يتعلموا ويبقوا مثقفين ومحترمين مثل الافنديات .

المنشأوي : يبقوا مثقفين مثلي بالضبط .

رجل : طبعا مثلك ... يا فيلسوف الحمير .. ياترعة المفهوميه !!.

يضحك الجميع !!.

استطرد « همام » قائلاً : من يوم الغد سنعد كشف تسجيل
أسماء أطفالنا وسنبداً بأولاد المرحوم « ابو العودين »

رجل : لازالوا صغاراً ... ما عدا ولد - هو « عويس » ...

همام : سنبداً مع الأطفال من سن ثلاث سنوات ...

الرجل : يبقى اثنين من أولاد « ابو العودين » ... ليس « عويس »
فقط ...

اتفق الجميع فيما بينهم على ذلك ... وأرسل « همام » لشقيقه
« زين » مكتوباً شرح الأمر له ... وأوصاه بأن يحضر معه هو
وصديقيه « طه » و « مخيمر » أعداداً من المصاحف والكتب اللازمة
... وأعطى « عثمان » لرسوله إلى شقيقه بعض المال اللازم لما
يحتاجه .

كان « زين » وصديقه « الشيخ طه » و « مخيمر » على وشك
إتمام امتحانات نهاية العام وقد أبدوا استعداداً وترحيباً هائلاً بأمر

تعليم الأطفال وجلسوا يتناولون الأمر .

قال « الشيخ طه » في فرح بالغ سائلا: ترى من صاحب هذه الفكرة الفريدة العبقرية ؟..

أجابه « مخيمر » : أكيد وليس غيره أبو الرجال ..

« طه » بالطبع ليس غيره ... ربنا يحفظه لنا ويبارك فيه ... ربنا يبارك لنا في كل آل « عبد العاطي »

وتحدث « زين » قائلاً : المهم يا اخوانا نريد أن نختار الكتب ... نوعية الموضوعات التي يمكن للأطفال استيعابها ولو إن هناك مادة صعبة – ممكن نجتهد سويا ونلخصها ونبسّطها وننزل بها إلى عقل الطفل .

طه : جميل يا « زين » أفندي ... يا ليت البداية والأهم تكون بكتاب الله عز وجل ومعه السيرة النبوية .. تحكي بطريقة سهلة وميسورة مثلما يستمع الأطفال حكايات الأم والجدّة ..

زين : رائع يا شيخ طه ! ... ولا بد أن نركز على قصص التراث العربي وأبطال العصر الجاهلي والفتح الاسلامي .

مخيمر : لازم نزرع في الأولاد روح العزة والإباء والشعور بالكرامة ! ... فتخلق وتكون الشخصية القوية .. نعم الشخصية

الفاعلة ... صاحبة العزيمة والإرادة! ...

زين : الله ! الله ! هي هي ... العزيمة ... الإرادة! ... روح التحدي .. المستنير صاحبها بالفكر والتنوير والثقافة ... الله !! كنت أحلم بشئ كهذا طيلة عمري ... ولكن شكراً لمن برز بهذه الفكرة وأخرجها للوجود ... شكراً للعبرى « همام الدرايسي » وأطرق الجمع هنيهة طالت قليلا ... وأردف الشيخ « طه » قائلاً : إيا يا اخوانا تفتكروا المشروع ... لن يلاقي معارضة من أحد؟.

نظر « مخيمر » في غرابة وسائلا في إنكار : من سيعارض ؟..

طه : البشوات !! البهوات !! ... والخواجة !.. كلهم لن يستريحوا لتعليم أولاد الفلاحين ... أكيد .

نظر « زين » لصاحبه « طه » : إنه أمر مسلم به .. ويجب علينا وعلى كل أهل « مغاغة » الصمود والاصرار والتحدي .. هذه الفكرة لا بد أن يبذل في سبيلها كل غالي ... فكرة تهون في تحقيق مبتغاها الارواح ويرخص لها كل عزيز ... يا اخوانا إن التعليم هو بداية الثقيف ، والثقيف هو بداية تكوين الوعي ... والوعي هو الباب المفتوح على مصراعيه نحو التحرر ... نحو احترام الإنسان لذاته كإنسان ... ومن الوعي لدينا نحن بل واجب علينا أن ندرك أن الطريق شاق ومضن ومفروش بالشوك والأذى .. وربما بالدم ؟!..

أجاب « مخيمر » في حماسة واحتداد : نعم بالدم !! ... إنه طريق الحرية يا رجل ... وطريق الحرية معروف لم يسلك طريق الحرية أحد دون مصاب ... ليكن !! .. ليكن !! ..

واتفقوا جميعا على شراء كل ما يلزم تعليم الأطفال قبل عودتهم إلى الصعيد عقب نهاية الامتحانات

* * *

بعد أن خطب « الشيخ زيدون » خطبة الجمعة واشاد بالخواجة ورحمته وكرمه وسباقه لفعل البر والخير ، شتم خصومه وحقرهم وكفرهم جميعا .

مر يومان على ذلك ... شعر بعدها بحرارة جسده وسخونه تسري في كيانه الزمته تلك الحمي الفراش ... أصاب الرجل « داء الكلب » وهو لا يدري ... مصل المرض كان منعما آنذاك ... وليس هناك وعى بحقيقة المرض ... والطب والطبيب مصطلحات على ألسنة الناس دون وجود لها في الواقع ... كان الطب الشعبي وبعض أمور الشعوذة وطقوس السحرة فقط ... طهروا جروح الرجل بمحلول الملح ... وتركوه بعد ذلك ... حتى ساءت حالته وتمكن الفيروس من دمه وجسده .

بلغت الحمي بالرجل متتهاها حتى دخل في هذيان واختلط عليه

الامر فراح يتمتم بكلمات وفي صوت كأنه أت من العالم الآخر : ما لي؟..

كان مالي والغلاية ؟ .. كان مالي ؟...جلس ابنه الشيخ «عبد القادر» بجانبه وجلست أمه عند رأس زوجها .

خاطبه ابنه سائلاً : أتريد شيئاً يا أبي ؟ ..أتريد شيئاً ؟ .

يجيبه متلعثماً : هاها ... خـ خـ و.....

دون شيء آخر ... عاد ابنه الكرة سائلاً : أتقول شيئاً يا أبي ؟...

أتقول شيئاً ؟....

شخص بصر الرجل نحو سقف الدار ومأخوذاً نحو النهاية .

الزوجة عند رأسه بللت خرقة من القماش بالية من جرة المياه بجانبها ووضعتها على جبهته يفیق الرجل لثانية أو أقل ثم يغمغم : خـ خـ و و ا جـ ... الـ الـ كـ لـ ب

وابنه مستغرباً لا يعرف كنه ما يقصده أبوه ولا بمقدوره الإمساك بكلماته ... الرجل يشخت ... يحشرج ثم تحشرج صوته وغرغر .. هزه ابنه في عنف مردداً : أبي ... أبي .. رد على .. انطق الشهادة ... انطق يا أبي .

ولكن ... أين أبوه منه ؟ !.... لم ينبس بنت شفة .

ظل الرجل يعالج
سكرات الموت حتى
(4)
فاضت روحه ... وبقي
جثة لا حراك فيها باردة
دون حرارة حياة .

انه مشهد النهاية للشيخ «زيدون» إمام
وخطيب المسجد الكبير «بمغاعة» .

نشأ «عبد القادر» في جلباب أبيه لم يرض مطلقاً أن ينفض هذا
التراب عنه ... ترعرع على حب الخواجة وكرهية أهل بلده دأب أبيه

فلما كان الخواجة ضامناً لطاعته وولائه ساعده على خلافة أبيه
في إمامة المسجد والإقامة على شئونه ، وأجزل له العطاء واشتراه
عبداً فبقى في زمرة عبيده يضرع لسانه ويلهج صباح مساء بعظمة
وحمداً الخواجة .

سمع الشيخ « عبد القادر » بمشروع التعليم فحث خطاه مهرولاً

إلى سيده الخواجة ، دخل عليه قصره فرقع وقبل الايدي والاقدام
يردد لسانه بمطلع ما يحمله من أخبار : أسمعت ؟ .. أسمعت يا
سيدنا البيه ؟

- تحدث يا ولد ما الخطب ؟...
- مشروع التعليم !! ... تعليم الأطفال !....
- أى مشروع ذلك ؟....
- مشروع تعليم الأولاد الصغار فى الدار القديمة !!!...
- أى دار ؟...
- دار قديمة لأولاد « همام الدرايسي » ... « همام » وشقيقه
فواز.
- متى سيدأ المشروع ؟...
- على نهاية الأسبوع ، لما « زين » وصاحبه « طه » يخلصوا
امتحانات الجامعة ...
- هل الأمر صحيح يا « عبد القادر » ؟
- والله العظيم .. وحياتك يا سيدنا وهى عندى أعظم -
الكلام صحيح

- خلاص يا « عبد القادر » امش انت ... روح

جلس الخواجة وحيدا حلق وجحظت عيناه أسفل حاجبيه
الكثيفتين الثقيلتين فبدا كالشيطان ... نفخ في قوة كان اتون تضطرم
النيران بجوفه فتصاعد إلى سقفه لفحات اللهب والحريق .

حدث نفسه سائلا : أهم مجددا ؟ .. أهم مجددا ؟ - أولاد «
الدراسي » ؟

سأخرج عن سكوتي عنكم هذه المرة ...

راح يعض أنياب الغيظ متمللا وعاد سائلا : « ترى - أى شئ »
افعله معكم يا أولاد « الدراسي » ؟ ... لم يبق إلا الفلاحون لكى
يتعلموا - بعدها لن يبقى لنا شئ ... لن نبقى هنا .. علينا أن نرحل
عن هذه الارض ... نعم .. لو أن هؤلاء حملوا مشاعل العلم والثقافة
والتنوير مستحيل ! ... مستحيل أن يحدث . وصرخ باعلى
عقيرته وقد غيب الغضب عقله : « مستحيل ! .. مستحيل مهما
كلفنى .. أولاد الكلب !..... ».

تردد صراخه في جنبات القصر فتناهي الصوت إلى خدام القصر
.. جاءوا مسرعين إلى سيدهم وسأله احدهم : فى حاجة يا سيدنا
اليه ؟ ... فى حاجة ؟ ..

وقف محمقا مأخوذا ومشدوها كأن شخصا لا يراه سواه يقف

متحديا له على وشك نزاله .. أعماه الغضب وقتله الحق فلم يسمع
سؤال خادمه عاد الصوت مناديا وسائلا : يا بيه ... يا بيه ... في
حاجة سيادتك ؟

إنّبه أخيرا لمصدر الصوت وحج خادمه بنظرة تطاير منها
الشر .

وصرخ : حاجة ؟ ... أى حاجة يا حيوان ؟ ... لا شئ ... غوروا
إلى الجحيم .

اندفع خدمه مهرولين للخارج وتركوه ...

نادى على السايس ليحضر له جواده « برق » ... جهزه له وجمع
رجاله ...

امتطي صهوة جواده وأطلق له العنان وخلفه الرجال يلهثون في
أثره .

مرت الأيام في طريقها غير ملتفتة ... وعاد « زين » وصاحبه
« الشيخ طه » « مخيمر » ... واشتروا معهم من قاهرة المعز كل ما
يلزم مشروع تعليم الأطفال من المصاحف وكتب المطالعة ومبادئ
التعليم الأولى وكانت فرحة الأهالي عارمة .

وعلى قدم وساق هب الجميع لتجهيز الدار القديمة وتنظيفها
وترتيبها فأصبحت جاهزة لاستقبال الأطفال .. وسجل « زين »

كشوف بأسماء الأطفال وتوزيعهم حسباً لأعمارهم على فصول مختلفة.

أبدى المعلمون استعداداً ونشاطاً فوق العادة « زين » ورفاقه .. الكل سعيد ... فرحان ... وأصوات الأطفال الملائكية البريئة تردد القران خلف المعلمين .

وكان فخر المعلمين بالأطفال النجباء لا يوصف ... الأطفال يحفظون ويتعلمون بسرعة عجيبة وخارقة للعادة .. العقول الصغيرة تضى وتلمع وتتوهج بنور الدرس والعلم وحفظ القران . ومن بين الأطفال الذين اظهروا براعة فائقة وملفتة للانتباه هما « عويس » ابن ابو العودين وشقيقه « سعد » .

ولا غرو فإن الأرض الخصبة الجذباء والتي هى فى شوق إلى المياه ... ما إن يصيبها الغيث حتى تهتز وتربو وتسخر بالنماء والعطاء والبركة .. كذلك أولئك الأطفال فقد ضرب الجهل وخيم على بيوتهم وبيوت آبائهم وأجداهم فاقفرت العقول كالأودية الجرداء العارية والتي خاصمتها المياه ... ولما انبثق النور لهذه العقول بدت تتوهج وتشع ... هاهم أولاد الفلاحين ... أولاد العوز والفاقة والحرمان !!! كل شئ سار سهلاً ميسوراً نحو التقدم والازدهار ... وما انفكت الألسنة تلهج بالدعاء والتوفيق لأولاد « الدرايسي » .

باع « فواز » محصول الفدانين وأعطى ثمنهما لشقيقه « همام » وهو القائم على المشروع كمؤسس ومدير مالي له .

جاء الكثير من الأهالي ليلتقوا أطفالهم بالمدرسة الجديدة ... ضاقت الدار القديمة على الاعداد الكبيرة للأطفال ... فقرروا أخذ دار أخرى وفتحها وتم ذلك بالفعل .

هذا المشهد لم ينأ عن الخواجة وعبيده وسدنته وباتوا ممتئين بالغیظ والحقد والحسد .. ومكروا وتربصوا الدوائر لصرف الناس عن ذلك الأمر بيد إن جميع كيدهم ارتد إلى نحورهم وباءت كل محاولاتهم بالبوار والخسران .

نازعت نفس الخواجة كثيرا هواجس التصادم المباشر بينه وبين أولاد « الدرايسي » ... ولكنه ليس بالرجل الغر ضعيف العقل ... كان داهية لا ينزلق إلى ما يشقيه او يتعبه .. فهو يعرف أن أولاد « الدرايسي » أصحاب عصبية كبيرة في « مغاغة » وباقي القرى حولها ، وكل من حولهم رجال من لحمهم ودمهم ... أما من في جانبه هو - فهم أجراء ومرترقة .. نبات متسلق لا تربطه بهم عصبه او دم او مشاعر .. والرجل يدرك ذلك تماما ..

الخواجة صاحب نفوذ وجاه وسلطة يستمدّها من افندينا حاكم البلاد (الخديوي) هذه السلطة هي فقط المفقودة لدى أولاد

«الدرايسي» دونها هم يتفوقون على الخواجة أما في وجود تلك السلطه في يده فتتبادل الكفتان أو أنها تميل قليلا مربوحة لصالح الخواجة .

إن المقارنة بينه وبين أولاد « الدرايسي » كالمقارنة بين الفيل والأسد لأي منهما القوة على اختلاف خطورتها وجسامتها إلا أنهما ينأيان عن الصراع والتصادم المباشر ... ربما يقضى الأسد على الفيل أو العكس ولكن الحتمية الوجودية تجعل التصادم غير وارد الوقوع ... بيد أنه غير مستحيل الحدوث .

على أى حال فان سحائب كثيفة وقاتمة تلوح في الافق وهى حبل بنذر التصادم وبلوغ الصراع لمنتهاه ... إلا إن ذلك فى طى الغيب .



تم الوصال ولقاء الاحبة بين « زين » و « ماجي » ابنه الخواجة - عدة مرات عند الساقية المهجورة ... و عند استراحة أبيها على النيل السعيد ... قد نهلا معا من كأس الحب والهيام المترعة بالهناء والشوق ولوعة انتظار اللقاء بعد اللقاء .. ذلك الانتظار الذى تعد وتحسب اوقاته ليس بالثانية ولكن بمئات الوحدات من أجزاء الثانية.

ها هما الليلة على موعد جديد عند الربوة الخضراء داخل بستان

النخيل بموقع ساحر قرب البر الغربى للنيل السعيد بالجانب الشمالى من « مغاغة » . الليلة قمرية بديعة ورائعة تعانق أجواءها النسمات الساحرة .

جاء « زين » قبيل الموعد مساقا بلهفة الشوق إلى المكان قفز فوق الربوة العالية رنا إلى الطريق حيث القادم ... نظر في ترقب محدقا بين جذوع النخيل المتمايل .. القمر بدرا يطل من علاه فوق النخيل وتنفذ أشعته التى تعكس ظلال الجريد والنخيل على الربوة الخضراء حيث جلس « زين » فى انتظار محبوبته ... لاح له شبح قادم من بعيد .. علق بصره بالقادم وهو يقترب شيئا فشيئا ... كانا رجلين يتحدثان وما لبثا أن تجاوزاه ومضيا لحالهما ... امتعض .. استبد به القلق .. ساورته الظنون .. اعتملت الأفكار فى عقله ... اختلطت الظنون والريب بفكره المضطرب وتقاذفت بنفسه فيما بينها فأصبحت داخله كالأمواج الكاسرة بالأقيانوس الهادر .

وبعد أمد سحيق ... بعد ملايين من وحدات زمن انتظار العشاق لاح له تحت ضي القمر شبح على ما يبدو لامرأة وبصحبتها أخرى ... أخذت تقترب حتى دخلت بستان النخيل تتبعها صاحبتهما .. ملأته الفرحة واختلج قلبه بالسرور وكاد قلبه يقفز من بين ضلوعه ... سرت قشعريرة فى بدنه وكيانه ... نزل بسرعة من فوق الربوة وهروا لمقابلتهما .. أمسك بيدها قائلا: المكان كله نور من حولنا

سيدتى الفاتنة !!!..

تنهدت وأجابت فى خفة ظل : لا ... إنه نور القمر !!!..

- أنت أجمل !.. ونورك أروع من القمر !!!..

تنهدت ثانية وكذلك خادمتها « وصيفة » وأردفت « وصيفة »
قائلة : « والله كلامك يا سيدنا الأفندي يمس القلب .. انا عارفة
الكلام الحلو بتفننوا كيف ؟!!!..

وضحك الجميع لوقع كلمات « وصيفة ».

عيناها الرائعتان تلمعان تحت أشعة القمر وتعلقان بعينى « زين »
..جلسا سويا على العشب الحبيب المتعب من وله الحبيب ومن
التنهد فولولت فيه العهود والوعود وجلست « وصيفة » على
بعد خطوات منهما .

سالها « زين » تأخرتى كثيرا عن الموعد ؟...

- لا فى الميعاد بالضبط .. ولا ثانية .

همس هو قائلا : « لا ينفع مع العاشق ضبط ولا ربط ...
والانتظار قاتل للعاشق ... ولا يجدي الزمن مع من عاش فى الخيال
برفقة الحبيب ».

ناجته بصوت متهدج النبرات مرتعشا :

- أنا بجانبك في الحقيقة ... أنا بجوارك ..
- حتى لو بقيت حتى الصباح فلن يغنيني عن ثانية واحدة أقضيها معك .
- ... تعودت على الخيال الذي تملكينه على وحدك .. أنت الآن ملكة الاثنين . الواقع والخيال ... وفي بعدك خيالي فيكي يسيطر على واقعي ويأخذني من وجودي ...!!!!.
- تنهدت وارتمست بسمة جميلة على ثغرها أظهرت أسنانها البيض اللامعة كالفضه النقية وهمست : « وأنت مثل ذلك بالنسبة لي انت تلازمني كأنفاسي .. كنفض قلبي ... أنت الحياة نفسها يا «زين»!..».
- انت تذكريني ببطلات وملوك التاريخ ليس لك شبيه او نظير في عالمي .
- أنت « بلقيس » ...!! « قطر الندي » ..!! « ميرامار » ..!! « كليوباترا » « نفر تاري » .. انت كل هؤلاء .
- وهي مأخوذة بكلامه اللطيف : لا ... لا .. تحديدا - من في هؤلاء؟..
- احتار في التحديد ... أنت كل هؤلاء ..!!

- الله !... لا يمكنني وصف رقتك ورقة كلامك ... كل شيء عندك لطيف ... وممتع ورائع !.

مر الزمن سريعا ، فالزمن دوما غير عادل مع العشاق .. يكويهم بناره في الانتظار والبعد ... وما أسرع وأنشطه في إنهاء اللقاء وقطع الوصال بين المحبين !

غاب القمر ولف الظلام الوجود وهما لاهيان . كانت « وصيفة » قد نامت ثم استيقظت فجأة فلم تر شيئا من الظلام الدامس .. انزعجت وضربت بيدها صدرها وهى تنادي : ست !... يا ست !... انتبهت « ماجي » للصوت وادركت الظلام من حولها فانفضت مذعورة .

- نعم يا « وصيفة ».

- بنا نروح يا ست بسرعة .. الليل سرقنا !...

همت واقفة .. امسك « زين » بيدها واجتازا سويا بستان النخيل تتبعهما « وصيفة » حتى وصلا إلى الطريق .. أرادت « ماجي » أن يتأخر « زين » قليلا بعدهما إلا أنه رفض بشدة وأصر على السير معهما فالليل تقدمت خطاه وليس هو بالرجل الذى يترك النساء في الليل ناهيك عن أقرب النساء لقلبه .

سارا يزحزحان الخطا في بطء وثاقل ... تمنيا لو تطول الطريق

او يتوقف الزمن المعادى دوما للأحبة ... وفجأة يمزق سكون الليل اذان الفجر واذ بها كعادتها تهلل وتردد « خلف المؤذن » : « الله !! ... الله ... » ما أجمل هذا النداء الساحر !!... انه يعانق روعي ... يدب في كياني ... الله على الإسلام انتبه « زين » لقولها وملاً نفسه بالسرور قائلاً : « ما دمت هكذا ... فالإسلام وإهله يرحبون بك » ... تنهدت في أسى : « ليس بيدي ... الأمر أكبر من إرادتي يا « زين » .. أردف هو قائلاً : « لا لا يا « ماجي » لا يوجد أكبر من الخالق لا اعتبار لكائن ما يكون على وجه الأرض بجانب الخالق وحقه على خلقه في عبادته هو وحده لا يملك أحد جنته ولا يملك عذابه ... لا عذر في ذلك لا عذر ».

اندفعت في خفه ومرددة « ليس لي عذر ... ليس لي عذر ».

- نعم ليس لك عذر .

صمتت هي فقد راعها الامر ودار في رأسها ثم أومات موافقة لحديث « زين » واخذت تدعو : « اهدني يا رب وخذ بيدي إلى طريقك وقويني ».

- الإسلام « يا ماجي » الإسلام هو طريق النجاة!!

اقتربا كثيرا من القصر وهي تدعوه بكلماتها الرقيقة قائلة « يا ترى

متى أراك ثانية ؟ أتأخر علينا ؟...

- لو كان بيدى افضل معاك طول العمر لا أفارقك ثانية واحدة.

- طيب متى أراك ؟....

- بعد يومين أو ثلاثة !... تنهدت قائلة : وفي نفس الزمان والمكان ؟.

- سأبلغك مع « وصيفة ».

وافترقا كل منهما نحو غايته

* * *

قام الخواجة « بمطاردة آباء الأولاد الذين انتظموا في مشروع التعليم في ارزاقهم وحرّمهم من العمل في مزارعه وأرضه واستبدلهم جميعا بآخرين من عمال التراحيل القادمين من بلدان الغرب البعيدة .

استقبلت أراضى أولاد « الدرايسي » أكبر عدد منهم ولكن هناك اعداد كبيرة تم تشريدهم وحيل بينهم ولقمة العيش وسد الرمتق انعكس ذلك على حضور الأطفال فبداوا يتغيّبون عن الدرس وتخلف الكثير من الأطفال والذين رغب آباؤهم في العمل لدى

الخواجة مضطرين .

أثار الامر حفيظة « فواز » والذي أتى إلى شقيقه « همام » والغيط قد أكل قلبه وفي تبرم وسخط سأل شقيقه .

- وبعدها مع ابن الخنزير .. الخواجة الكلب ؟.

- اهدأ يا « فواز » ... اهدأ !!.

- ما عادت لي طاقة على التحمل صبري نفذ ...

- بالراحة فيما ترغب فعله ؟.

- أريد اولع في الخواجة .

- لا لا لا ... ذلك يجز علينا ويلات واهوال ..

- ليكن ما يكون ..

- وبعد خراب ديارنا ويتم أطفالنا .. ما الفائدة ؟.

- طيب يا اخوي دبرني .. كيف العمل ؟.

- نحاربه بنفس طرقه وحيله واسلحته ...

- كيف ؟ ...

أطرق « همام » مليا وعاد سائلا أخيه :

- لما الخواجة طرد الفلاحين من أرضه ، من عوضه عنهم ؟..
- عمال التراحيل ، من بلاد الجبل الغربي .
- من صاحب النفوذ والتاثير في نواحي الجبل الغربي ؟.
- لا أدري بالضبط ... لا أدري ..
- « الشيخ خضر الغرباوى » .. هو وأسرته له مكانته الدينية والأدبية في نفوس كل اهل الغرب بل في كل بلدان « العدو » و«مغاغة» و « طنبدى » و « شم »...وله مفعول السحر في نفوس الجميع..
- وفي تبرم وضيق قال « فواز » :
- والله ما أنا فاهم أى حاجة .
- واحدة بواحدة معى انا افهمك كل شئ .. سأذهب لمقابلة « الشيخ خضر الغرباوى » وأحدثه في أمر الخواجة وأفعاله وتصرفاته مع الفلاحين ومحاربته لتعليم الأطفال وأطلب منه التدخل في الأمر ومخاطبة الخواجة لكى يمتنع عن مطاردة الناس في أرزاقهم .
- انفجر فواز غضبا وسخطا وهازئا :
- أى وساطة مع الكلب الخواجة ؟.
- اصبر يا اخوي ... اصبر وتفهم الامور لو وافق الخواجة

الشيخ فبها ونعمه ... وإن لم يفعل فسيصطدم بالشيخ .. ولكن المتوقع غير ذلك .

- ترى ما هو المتوقع ؟.

- ان يواجه الخواجة الشيخ بكبرياء وغطرسة وتعالى .. يستاء الشيخ منه وينقلب عليه ... عندها اتدخل انا واطلب من الشيخ منع الفلاحين وعمال تراحيل الجبل الغربي من العمل عند الخواجة .

- بدا « فواز » فاغرا فاه ومندهشا من حديث شقيقه .. فقد راعته الفكرة وحكمة شقيقه .. فتهلل وجهه وطفق قائلا :

- يا اا على عقلك !! .. خلاص فهمتك يا اخوي .. فهمتك يا ابو الرجال .

- ومتى ستقابل الشيخ ؟

- إن شاء الله في يوم الغد ...

كان « همام » رجل ساحر الحديث يمتلك قلب محدثه في سرعة خاطفة تساعده رقة طباعه وحلمه ووقاره وسرعة بديهته وحضوره وبعد نظره .

ذهب لمقابلة « الشيخ خضر الغرباوى » وبدأ الثناء عليه وعلى أسرته ومكانتهما الدينية لدى الناس واشاد بفضلهما ونصرتهم لدين

الله في مشارق الأرض ومغاربها وفي جهاده للدين والوطن .. فأسر الشيخ بحسن منطقته وعذب حديثه وسلاسته فملك قلبه وعقله .

وشرع « همام » ليحدثه في المشروع التعليمي والغرض منه واهمية التعليم .

ونشر الوعي في الناس .. والشيخ ملئ بالاعجاب من أفكاره وطريف إبداعاتها .. وختم حديثه مع الشيخ بموقف الخواجة وظلمه وعناده وعن مساومته بين قطع أرزاق الفلاحين أو انقطاع أطفالهم عن التعليم والدرس وكيف أن الخواجة أصبح عقبه كؤود أمام تعليم الناس .

انفعل الشيخ واستاء كثيرا وبدا الغضب على قسّمات وجهه .. وطلب « همام » منه التدخل في الأمر لدى الخواجة وحثه على عدم محاربه الناس فوافقته الشيخ مرحبا ووعدته بمقابلة الخواجة والتحدث معه . استأذن « همام » وترك الشيخ وانصرف .



خطر على ذهن « همام » وهو في الغرب صديق قديم لوالده هو « شيخ العرب النجداوى » فعزم على التوجه لزيارته ، واخذ طريقه نحو « نجع العرب » هناك في حضن الجبل الغربي .

كان الوقت عصرا ويسير « همام » ممتطيا حصانه وأثناء سيره

أرعى اذنيه للمغنى البدوى وصوته الرائع وهو يقود قافلة البعير :
ياحادى العير وقف اسالك ديار حبيبي قرية ولا بعدت
ساير ليالى طوال نجومها ما تبينت ساير وبنار الشوق نفسى
تنزف بالجوى جروح والروح اتعذبت
ياحادى العير وقف اسالك ديار حبيبي قرية ولا بعدت
عاشق ريم ياخال ماتقولى بدر قلبى أسير هواه ولدياركم حضر

عساكم ترحموه ياخال من بعد السفر

ياحادى العير وقف اسالك

انتشى « همام » طربا وهو يردد خلفه وقد استولت على نفسه
حلاوة المعانى وطلاوتها ..

وسار يرددها فى سرور بالغ حتى وصل إلى « نجع العرب » .

تهلل وجه « الشيخ النجداوى » بالبشر والفرحة لرؤيته « همام »
وطفق مرحبا ومحتفيا بابن صديقة القديم : يامراحب .. يامراحب ..
ولد سبع الرجال .. ولد الرجل الهمام « سليم الدرايسي » .. من يوم
موت حبيبي « سليم » ماخطيت ناحية المشرق .. يا اهلا .. وشرع
الرجل آخذا فى حضنه « همام » ومقبلا جهته ورأسه وقائلا : « كأنى

رأيت» سليم الدرايسي « اليوم أهلا ياريحة الحبايب » .. ثم نادى على الرجال والشباب وامرهم بذبح ونحر الذبائح ثلاثة أيام متواصلة وفي الليل اللهو والسمر وليالى الملاح تكريما وحفاوة بالضيف العزيز .

ونادى « الشيخ النجداوى » بأعلى عقيرته :

- يا « معبد » ... يا ولد يا « معبد » ...

جاء الشاب مسرعا إليه :

- نعم يا جدى ... نعم !.

- جاوبنى يا ولد عرس من فى القبيلة هاد الموسم ؟.

- عرس « تميم » ابن عمنا على ميسون بنت النضير :

. تقام الأفراح من هادا الليلة بعد العشاء .. تقام الأفراح والليالى الملاح ويشاركنا افراحنا الغالى ابن الغالى ... حل علينا بوجه الفرح والسعد تمام كيف دأب المرحوم أبوه فى حال حياته ..

وذبحت الذبائح وأقيمت الولائم .. وأكل القوم وشربوا .. واستأذن « همام » الشيخ فى الانصراف والرحيل بيد أنه غضب وتأثر بشدة وصرخ مقسما : والله العظيم ثلاثة لاترحل من نجعنا إلا بعد ثلاثة ايام تامة ولو نطق بحرف واحد لخليهم شهر كامل .. عيب

ياولدى .. كنا بنضايف عند المرحوم أبوك بالشهر .. وحلت في سنة
علينا مصيبة ، هجرنا النجع وقعدنا عندكم في دياركم عام كامل ..
حول بتمامه وكماله .. والله كنا وسط اهلنا في « مغاعة » .. ونعم
الكرم ونعم الرجال انتم .

- لكن أهلى لايعرفون بأنى عندك ياعمى الشيخ ...

نادى الشيخ على الشباب ، وجاءوا اليه ، خاطبهم قائلاً :

- يذهب اثنان منكما الحين إلى « مغاعة » تبلغوا « فواز » ولد
«سليم الدرايسي » . بأن شقيقه « همام » ضيف عندى في نجع
العرب » ..

موجها حديثه إلى « همام » : خلاص ياولد حبيبي .. اطمأنتت ..
حجتك انتهت خلاص .

لم يجد « همام » بدا فمكث مع « الشيخ النجداوى » .

وبعد العشاء وبين الدور المشيدة بالطين وبعضها بالأحجار
ومسقوفة بالبوص والجريد وهناك بعض الخيام المنصوبة .. اقيم
السامر .. وتجمع الشباب والكهول و الشيوخ والنسوة والصبايا
وحتى العجائز .. وتبارى شعراء البادية فيما بينهم وجاءت المغنية
فائقة الحسن والجمال تتمايل وهى تغنى بلهجة رائعة وبصوت
شجى مرتعش النبرات .

آه آه آه يا بديوى .

حبك حراق فى قلبى .

آه آه آه يا بديوى .

وتردد من خلفها الصبايا ... آخرتها معاك يا بديوى ..

والحيرة ويك على عيني .

جرتنى وراك يا بديوى .

آه آه آه يا بديوى .

عطشانه والميه فى يدك .

واحلف بالغمزة على خدك .

تروينى وتعذل عن صدك .

وترحم عذابى يا بديوى ...

وتردد من خلفها الصبايا ... آخرتها معاك يا بديوى ..

آه آه آه يا بديوى .

أخذ جمالها « همام » وهى تتمايل فى غنائها . لها وشم أخضر فى
زرقة مرسوم على ذقنها ينطق سحرا على وجهها القمري البدرى
المستدير .. وعيناها واسعتان لهما حور جميل وفتان .. رموشها

سابلة تكاد تغطي من طولها عينيها .. هيفاء وملتفة في استواء واعتدال وقامة عالية .. لها أنف أخنس صغير.. وفم لولا أسنانها ناصعة البياض لما ظهر من دقته .. وأخذت تنظر هي أيضا لعثمان .. وعند ختام أغنييتها ألفت بمنديلها عليه فأمسكه بيده .. مال عليه «الشيخ النجداوى» هامسا له : إنها « ناجية بنت اخوى صفوان » الله يرحمه .. ربيتها بعد موت ابوها .. كانت طفلة صغيرة .. لكن بختها مال .. وما اتعدل زهرها ! ..

- كيف ياعم « نجداوى » ؟ ..

- مات خطيبتها قبل دخلتهما فاصبحت من ساعتها كيف البيت الوقف .. ولا شاب راضى يتقدم ويطلب يدها .. بقت فأل شؤم .. سبحانهك يارب ناظرها كيف البدر في اكتماله .. هي « ناجية » زينة الصبايا الملاح !.

وعلى الفور ودون تردد والفرحة تملا قلب وكيان « همام » أنا بطلب ايدها منك ياعم « نجداوى » ولى الشرف بنسبكم .. طبعاً بعد رأيها وموافقتكم انتم ...

أجابه الشيخ النجداوى : ياولدى أنا رجل كبير حكنى الدهر .. رأيها أنا عرفته . أمارته المنديل الطائر وحط عليك .. ورأى فيك يا ولدى انك رجل ابن سيد الرجال .. أنت أفضل مننا ياولدى شرفاً وأصلاً .. أنت من عشيرة زين ولك عزوة وناس ورجال .. مبارك

عليك ولدى .

ثم وقف الشيخ مناديا وسائلا : يا أهل النجع .. يا أهل قبيلتي ..
هادا الضيف ابن صديقي الغالي المرحوم « الدرايسي » ايش راىكم
فى الرجل ؟

الجميع فى صوت واحد : « رجل كل الزين ..! ...

عاد الشيخ النجداوى : هو طلب يد « ناجية بنت اخوى صفوان »
وأنا قبلت طلب الرجل ..

الجميع فى صوت واحد : مبارك عليه وعلينا ..

وشرع الشيخ قائلا : نقرأ مع بعضنا الفاتحة ..

إلا إن « همام » استوقفه قائلا : « لا .. لا ياعم الشيخ نجداوى ...
بالطبع أنا شاكر لك كرمك لى لكن اسمح لى فالأصول تقتضى أن
يحضر معى هنا كل أهلى وعائلتى وتطلب منى أعلى مهر تزوجت به
بنت فى نواحيكم .. انا اتقل ببتكم بالجواهر .. بالألماس ياعم الشيخ
نجداوى ...

استحسن منه رجال وشباب القبيلة حسن منطقة وحسن أدبه
وفرحوا به وكذا الشيخ أكبره فى نظره .. ورفع مقامة لديه وهز الرجل
رأسه موافقا وأردف قائلا : يكفيك يا ولدى .. لكن أريد أقولك شئ أنا
عرفت أبوك الله يرحمه زين .. وكأنى أراه الحين فيك أنت .. صحيح :

من خلف مامات .. نفس الشبه بينكما ونفس الرجولة والطباع ..

وجلس « الشيخ النجداوى » يتجاذب أطراف الحديث مع «همام» وشباب ورجال قبيلته حتى ساعات متأخرة من الليل .. هجع الجميع إلى النوم ... وأطبق السكون على النجع .. ولكن «همام» لم يغمض له جفن .. بات مسهدا مجروح الجفن .. إنه في عجب من تحولات القدر .. وكأن ما حدث لشخص غيره من شدة غرابته .. وعاد شريط الأحداث للوراء حسبا لترتيبه في ذهنه وكما وقعت فعلا.

عائدا من مقابلته للشيخ «خضر الغرباوى» تذكر صديق أبيه وجاء لزيارته هكذا دون ترتيب سابق أو إعداد .. بعدها ودون سوابق أو مقدمات وجد نفسه مرتبطاً بفتاة هى الآن فى حكم خطيبته .. هو الرجل المتزوج وله اثنان من الأولاد .. إلا أنه أحب الفتاة وللوهلة الأولى .. من أول نظرة .. نظرة خطفت قلبه وروحه .. أى قدرة أو قوة او سلطان لسهم هذه النظرة .. هكذا سلبته قلبه مثلما يطلقون عليه فى عالم الرياضة - الضربة القاضية .. أطلقت عينها الحورأتان قوى خفية كقوى السحر أو القوى المغناطيسية .. أيا ما كانت ! .

ولكن - أيستطيع أطباء الغرام وحكام الفلسفة وأكابر العشق أن يفسروا لنا هذه الحالة .. الضربة القاضية للقلب وخطفه فى شرك الغرام من الوهلة الأولى ؟ ...

ربما عند الصوفيين والروحانيين إجابته ما . أو عند أصحاب
الرأى أو النظرية القائلة بالتواصل والإرسالات الروحية بمجرد
تلاقى العيون وتخطبها بلغة غير لغة الكلام والتحدث وغير اللغة
فوق المعتادة وهى الشائعة عبر الأشعار المنشورة .. وليست بلغة
إشارة .

لاستطيع أي من تلك النظريات أو الاتجاهات أن تسعف
«همام» بجواب شاف يريحه من هذه الحيرة وتلك الدهشة .

إن ما يريحه ويركن اليه فى دعة واطمئنان .. اعتبار أن الحب قدر
.. قدر وكفى .. سواء نزل بالقلوب فى ثانية أو فى أيام أو شهور أو
سنون .. إنه قد وقع بالقلوب وانتهى الأمر .. وبما أن الحب قدر فلا
يلزم التحدث والبحث فى فلسفته .. إن عقولنا ليست مخولة بمناقشة
كنه الأقدار .

انقضت أيام الضيافة بنجع العرب ، وعد « عثمان » الشيخ
النجداوى بالعودة ثانية ومعه أهله بعد اسبوع على الأكثر ، وسلم على
رجال وشباب القبيلة وقبل رأس الشيخ النجداوى وانصرف راحلا
عن النجع .

* * *

قامت « زهرة » ابنة شيخ البلد من نومها مهمومة ومكسورة على

انكسارها لوقع تلك الرؤية التي رأتها في منامها .. رأت حفل عرس كبير بقصر الخواجة .. وجمع من البشوات والبكوات وعلية القوم .. زاحمت ودفعت عنها الأجساد المتلاصقة حتى وصلت إلى منصة العروسين وإذ بهما

« زين » وصاحبتهما « ماجى » ابنة الخواجة .

أكل قلبها الغيظ وعضت نواجزها وبدت كالنمرة الهائجة ، وجرت مسرعه من دار أبيها كالمجنونة في طريقها إلى « ام الدنف » .
« ام الدنف » امرأة ندابة تستأجر فى المآتم .. وهى امرأة أريبة ومحنكة وتنتمى فى الأصل إلى الغجر ولها دراية واسعة بكل شئ خصوصاً السحرة والمشعوذين .

دخلت عليها « زهرة » فتعانقتا وقلبت « زهرة » يدها ورأسها ثم جلست القرفصاء على حصير يفرش الأرض فى مواجهتها .. نظرت المرأة لها نظرة متفحصة طويلة وبادرتها فى حنو مصطنع : سلامة الجميل من الحزن .. عينيك الحلوين دبلائين والحزن يا ولداه ساكنهم !....

ندت زفرة أسى طويلة على وجه « زهرة » وتنهدت فى قوة وبصوت جرحه الأسى والضنى : موجوعة يا خالة .. وقلبى مكسور !...

ضربت المرأة صدرها في ارتياح : عيني عليكى يا بنيتى .. سلامتك .. فداك خالتك « أم الدنف » .. روحى يا بنيتى .. فضفضى لخالتك .. وراحت « زهرة » تقص لها ما حدث بينها وبين « زين » وبنت الخواجة ، وكيف إن ابنة الخواجة خطفت منها حبيبها على حد زعمها ... وختمت حديثها بتلك الرؤية المفزعة لها والتي رأتها في منامها ، وجاءت على أثرها من نومها تجرى إلى « أم الدنف » وظلت « أم الدنف » منصته لها في اهتمام بالغ ولم تنفك محولة بصرها عنها حتى بعد أن فرغت من حديثها .. وكانت تغمز بعينها عند النقاط الهامة في الحكاية وكأنها قارىء جيد يضع خطوطا حمراء تحت العناوين المهمة .

فرغت « زهرة » من حديثها ، صمتت ونظرت متطلعة إلى وجه المرأة لكي تقرأ مدى تأثرها واهتمامها بأمرها .. وفي سرعه خاطفة أدركت المرأة ما تصبو اليه الفتاة فراحت ضاربة صدرها بيدها في قوة وتصنع بالغين قائلة : بنت اللثيمة !.. خطفت منك الجذع وكسرت قلبك .. وبتقول إنها صاحبتك .. لا .. هى عدوة بنت عدو .

وما لبثت أن صمتت في خبث بعد أن القت بهذه العبارة لتحرك الفتاة .

نظرت إليها « زهرة » لما طالت فترة الوجوم والصمت .. تململت في قلق بالغ .. أدركت المرأة منها ذلك دون أن تتفوه بكلمة

.. استبد القلق والتوتر « زهرة » وقالت في عصبية وتبرم : دبرينى ياخاله ؟ ..

والمرأة تتدلل في ثاقل عجيب دون أن تنبس ببنت شفه .. إلا أنها نظرت إلى « زهرة » في سخرية واستنكار ولكن دون رد منها .. عادت « زهرة » في يأس وقنوط واستسلام وفي نبرة مشوبة باللوم والعتاب : ألم تسمعى ياخاله ؟ .. قلت لك : دبرينى .. دبرينى ياخاله...

وفي لهجة احتداد واستنكار غاضبة قالت المرأة : وماييدى افعله؟

بخيبتك القوية والهبل ضيعتى حبيبك من يدك .. وبعد خراب مالطه جايه تقولى : دبرينى ياخاله .. ما يقدر على القدرة إلا رب القدرة !! .. ما بيدى شئ .

راحت « زهرة » والدموع تملا عينيها وتناجيها في ضراعة وتوسل وفي صوت غالبته العبرات : ارحمنى ياخاله ! أرجوك .. أنا بموت .. انا فى عرضك يا خاله .. أرجوك ..

وصلت المرأة الماكرة إلى ما تريد وهيأت الفريسة للخطوة المباغثة والانقضاض عليها وملاً السرور قلبها وقالت وهى تغمز بعينها وفي ثقة وغرور : أنا تربية غجر والعب بالبيضة والحجر .. صحيح الموضوع صعب .. وأنتِ صعبتيه بغباوتك ويحتاج منى

مجهود كبير لكن .. قاطعتها

« زهرة » في رعونة بالغة : نعم ... نعم ولكن

- كلة بثمانه الموضوع يحتاج منك لتضحية كبيرة قوى
.... كيف يا حالة ؟

- خمسة عشرة جنيه ... خمسة عشرة عدا ونقدا

لكن يا خالتي المبلغ يساوى نصف ثمن فدان طين .. هو ثمن
نصف فدان طين

- والله يا حلوة بنت شيخ البلد تساوى الدنيا كلها انت زينة
الصبايا .. عشرة جنيه للشيخ « المرجوشى » وخمسة جنيه لى انا ..
اندفعت « زهرة » سائلة : من « الشيخ المرجوشى » ؟ ...

- يا على « الشيخ المرجوشى » ؟ .. عالم كبير قوى قوى ...
بيحسب النجم ويضرب المندل .. ويفتح الكوتشينة ... رجل علوى
ومكشوف له الحجاب من رب الأرباب .. ويرى فى كشفه المخبى
والمستور وعمله اسود يتوضع فى القبر والدور . وفى مدى جمعيتين
تنفك العقد ووصلك للحبيب يصبح كل الزين .. سال لعاب (زهرة)
وهدهد حديث المرأة روحها وأثلج صدرها وما لبثت موافقة على
طلب المرأه وأومأت بالإيجاب معلنة رضاها على طلب (أم
الدنف).

أيقنت (أم الدنف) بنجاح خطتها وإمساك هدفها والوصول إليه فقالت في اشتراط وتحكم: لكن (الشيخ المرجوشى) يأخذ حقه عدا ونقدا مقدما قبل أي حاجة.. وانا راичه عنده بعد يومين.. دبرى نفسك، وجهزى المطلوب منك.. بعدها هو سيقوم بعمل شغله.. سيعمل له عمل يجعله يقوم من نومه يهتف باسمك.. زهرة!.. زهرة!.. مثل المجنون.

أصحيح ما تقولينه يا خالة؟..

- عيب يا بنيتى ..عمل (الشيخ المرجوشى) ما ينزل الأرض أبدا.. اطمأنت (زهرة) وكادت الفرحة أن تقفز من عينيها وهى تقول: لهذه الدرجة؟

وأكثر!.. انا جربت الشيخ مرات كثيرة.. سأحكى لكى العجب عنه!! إلحقينى يا خالة وحياتك.

كان شاب غلبان ييحب بنت من الأغنياء وهى تحبه لكن أهلها رفضوه واهانوا الشاب وعايروه بفقره يا ولداه .. وفى يوم رجل طيب دله على « الشيخ المرجوشى ».. وحضر الشاب عنده.. بعد جمعيتين وثلاث أو أربع أيام بعدها.. وفى ليلة من الليالى البنت خبطت على عم الشاب، وراحت قالت له سأموت نفسى لو ما تم زواجى من ابن اخوك .

« زهرة » في دهشه وانبهار وفرحة عارمة : معقول يا خالة ؟! .

- عيب يا بنيتي .. في مرة بنت كانت أسوأ أخواتها وكانت قبيحة الوجه، وكل أخواتها تزوجوا ماعدا هي .. وحياتك - بعد العمل من الشيخ - العرسان والخطاب بقوا بالطبور على دار ابوها .. وابوها بقي يحكم ويتحكم - وتزوجت من ابن شيخ بلد، كانت أحسن من زيجات أخواتها كلهم .. والله يا بنيتي .. « الشيخ المرجوشى » يقرأ الكف ويشوف الطالع .. ويفتح المندل .. ويحسب النجم .. وغيره وغيره .. كثير قوى .. « الشيخ المرجوشى » - بحر علم .

« زهرة » في ثقه وحماسة: أنا سأحضر المبلغ لك بكره يا خاله .. خلاص .

إوعى تنسى تحضرى معاك قطعة من ملابس حبيبك ، واسم أمه تكتبيه في ورقة .. وأريد إن أعرف اسم أمك أنت ..

- اسم أمى أنا يا خالة « نعيمة » !-

خلاص اكتبى اسمك واسم أمك، وتحت منه اسم حبيبك واسم أمه - ثم صمتت « زهرة » برهة كأنها تحتار في أمر ما -- لاحظت المرأة أمرها فنظرت لها وسائلة: في شىء حيرك ؟:

- نعم يا خاله ؟:

- خير! في أي حاجه؟ --

- لو ما استطعت الوصول لأى حاجه بخصوص « زين » أيكفى اسم امه؟

- لا لكنه ممكن لو الامر صعب عليك، احضرى لى حفنة تراب من تحت قدمه --

- إزاي يعنى؟:

- تاخدي بالك منه زين وتراقبيه ، وعينك عليه وسكته وطريقه .
وتبصرى مكان قدمه واثرها فى الأرض، وبعد ما يعدى ويمشى بعيد قوي، تروحي بسرعه تاخدى حفنة تراب من مكان أثار قدمه -
خلاص فهمتى يا بنتى؟ --

- خلاص ياخالة - فهمت - فهمت ..

واستأذنت « زهرة » من « أم الدنف » وتركتها وانصرفت بعد وعدھا أنها ستجئ إليها فى يوم الغد، وكانت فى حاله من السرور والانشرح تغاير تماما الحاله التى أتت بها إلى المرأة.

* * *

اوقف « الشيخ خضر الغرباوى » حصانه أمام البوابة الخارجية لقصر الخواجة ونزل معاونه من على جواده هو الآخر وأمسك الجوادين.

جرى البواب إلى الشيخ في سرعة البرق وفتح البوابة وسلم على الشيخ مقبلاً يده وهو يقول: يا مرحباً يا سيدنا الشيخ.. مرحباً يا مولانا.. زارنا النبي.. نورت «مغاغة».. اتفضلوا.

أدخل معاونه الخيل.. وجرى البواب للداخل ليخبر الخواجة بقدوم الضيف الكبير.. تأخر لبرهة طالت قليلاً ثم خرج قائلاً للشيخ: تفضلاً البية في انتظارك يا سيدنا الشيخ وأشار له على الطريق للدخول حيث يجلس الخواجة.

وأخذ البواب من المعاون زمامي الحصانين واتجه بهما نحو اسطبل الخيل.

دخل الشيخ ودلف خلفه معاونه وقرأ الشيخ السلام ثم رد الخواجة قائلاً: سعيدة مبارك!!..

ووقف الخواجة في تناقل وصافح بأطراف أنامله في استعلاء وكبر ولم يصافح معاون الشيخ.. جلس الشيخ واضعاً ساق على ساق في مواجهة الخواجة وجلس معاونه بجانبه.. ونظر الشيخ إلى الخواجة من أسفل إلى أعلاه في ازدراء واستهجان ثم ما لبث قائلاً: أرى من الأصلح الدخول في الموضوع مباشرة من غير حتى تعارف بيننا وبدون مقدمات وبادر الخواجة قائلاً: أنت تحارب تعليم الناس هنا وتسامو الناس على أرزاقها مقابل حجب أبناءهم عن التعليم..

نظر الخواجه مصطفى التغبى والانكار قائلاً: تعليم!!.. أى تعليم؟.. هل يوجد تعليم هنا؟.

- نعم بالجهد الذاتى لأولاد « الدرايسى ».. وللناس هنا..

ضحك الخواجه فى هiestريا كالمسطول وساخرًا: من أولاد « الدرايسى »؟!.. وهل يوجد ناس هنا؟.

عندها خرج الشيخ عن حلمه ووقاره مواجهها سفه وحماسة الخواجه وصرخ قائلاً: هم أناس محترمون رغما عنك وعن أبيك.. أولاد « الدرايسى ».. هم أسيادك.. أنت لا حق لك هنا.. أنت مجرد لقيط لا جذور لك ولا أصول لك ولتذهب حيث كان يعيش أجدادك هناك.. انت مجرد مرض!.. مرض لعين!.. يجب القضاء عليه.

ثم هم واقفا للانصراف وأشاح بيده له فى هزء واحتقار وغادر تاركا الخواجه ويتبعه معاونه.

ذل عقل الخواجه الذكى وتعثر بعجرفة كبريائه.. وطاش فهمه.. لم يتحمل وقع ذكر اسم

« الدرايسى » وذلك للحقد والضغينة والكره الملىء بهما قلبه.. تعاليه أعماه عن حقيقة يوقن بها تمام اليقين وهى - مكانة وأهمية الشيخ « خضر الغرباوى ».. ويدرك أن فى ذلك خسارة كبيره له..

لكن عناده يأبى عليه أن يتصرف بمظهر المسلم والمذعن.

سأل الشيخ عن دار «همام» ورأى انه من الواجب أن يقابله تقديرا لوعده له.. وبالفعل وصل هو ومعاونه وخرج «همام» وإخوته وجميع أهل الحى لاستقبال الضيف الكبير.. جميع الناس جاءوا يسلمون على الرجل تباركاه.. وعم السرور والفرح واحتفى أولاد «الدرايسي» بالشيخ وانزلوه منزلة الملوك والأمراء من انفسهم.. ذبحوا وأقاموا الولائم له ولجميع الفقراء والأقربين. وبعد الأكل والشرب، شرع الشيخ «خضر الغرباوى» بالحديث عن الخواجه ومقابلته السيئة.

ووصفه له بالسفيه الأحمق.. استأذن «همام» للحديث فرحب الشيخ مسرورا وأذن له قائلا: اتفضل يا «همام» يا ابنى، أنا بحبك وحديثك ييقع فى القلب بسرعة.

قال «همام»: والله يا عم الشيخ - الخواجة يستعين بالفلاحين من نواحيكم بدلا عن هنا. قطب الشيخ حاجبيه وسائلا: من أي بلد من الغروب يأتون؟

- من العطف، بنى وركان، القايات، برطباط.. هز الشيخ رأسه ثم قال فى ثقة بالغة: سأتحديث إلى مشايخ وعمد هذه البلاد كلها، وسنمنع جميع الفلاحين من العمل فى أرض الخواجة سنحاصره ابن

الكلب. ثم صمت الشيخ برهة وقال مشجعاً: على العموم بارك الله فيكم.. وامضوا على بركة الله.. لا شيء أولى بالتعليم من حفظ كتاب الله عز وجل.. وربنا يوفقكم وإي شيء تحتاجونه أنا مستعد.. وسأتبرع لله عز وجل وللمشروع بمبلغ سنوي « ثلاثون جنيه ».. وسأرسله سنوياً مع صاحبي وأشار على معاونه.

شكره الجميع ودعوا له بالبركة. تشعب الحديث بين الشيخ والجميع وأهل الدار وكل عائلة «عبدالعاطي» لساعات طويلة، والناس في سعادة وسرور بالغين بوجود الشيخ بينهم ثم أدرك الشيخ أن مهام كثيره في انتظاره فستأذن وانصرف، وسلم على الحاضرين يتبعه معاونه.



جلسا « همام » و « فواز » ومعهما شقيقتهما « زين ».. نظر « فواز » إلى شقيقه

« همام » في احترام واكبار بالغين قائلاً: كما حسبتها بالضبط يا أبو الرجال.. تسلم!.. كما قلت بالضبط: اتوقع الصدام بين الشيخ والخواجة.. تم بالفعل الصدام.. وقد كسبنا الشيخ في صفنا نحن.. بالإضافة إلى مكسبنا للغروب كله.

عقب « زين » قائلاً: رأى أبو الرجال دوماً صائب.. إنه بعيد

الأمد والرؤية !!..

ذهب « فواز » بدفة الحديث إلى جهة أخرى ونظر إلى « همام » بابتسامه ذات مغزى ثم صمت.

أدرك « همام » ما وراء ابتسامه أخيه فالتفت بعيدا خجلا منه .. بيد إن « فواز » طارده بكلماته قائلا : سيدي يا سيدي ناس فرحانة وناس مثل حالتنا لهم العمشانة .

رد « همام » سائلا وفي إنكار: وهي زوجتك عمشة يا « فواز » ؟

اشاح « فواز » في تمرد وضيق قائلا : ياللا بقى .. أهو حظ والسلام .. عمشه ولا عرجاة : والله ماتفرق .. هو خفير بنبوت والسلام .. وضحك الجميع .

وسأل « زين » شقيقه « فواز » وياترى ما سبب فرحة الناس ؟

ابتسم « فواز » لشقيقه « همام » وهو يقول له : رد عليه يا « همام » الجواب عندك ..

« همام » في خجل : لا أعرف .. قول له أنت يا « فواز » براحتك .

استغرب « زين » الأمر ونظر إليهما وسألهما : ما الأمر ؟ ..

أجاب « الدكرورى » . أبو الرجال يا سيدي . بيحب .. مغرم صباة .. « زين » في غرابة بيحب ! .. مغرم ! .. مغرم بمن ؟ .. « فواز »

ساخرا : عاشقنى أنا ..

ضحك « زين » وعاد سائلا « فواز » : لا صحيح .. بدون هرج ..
أنا بتكلم جد ...

أجاب « فواز » بصوت هامس : فاتنة .. فاتنة خطفت قلبه في
« نجع العرب » ؟ ..

تهلل وجه « زين » بالبشر والفرحة وهو يقول : ربنا يسعدك يا أبو
الرجال .. الرجل له أربع نساء يجمع بينهم .. ويارب كل رجل في
أولاد « الدرايسي » يتزوج أربعة ، وربنا يهنيه ويعطيه عشرين رجل ..
قال « فواز » : نحن عزمنا على السفر لنجع العرب .. نقرأ الفاتحة
ونقدم مهر ابنتهم .. ويكون أكبر مهر دفع لعروسة في نواحيهم طوال
عمرهم .

فأنشد « زين » قول أبى تمام :

تهون علينا في المعالي نفوسنا ومن يخطب الحسن لم يغلها

قال « فواز » : المهر خمسون جنية وعدد أربع جمال محملين هدايا
وأثواب للعروسة ولأهلها والنجع كله .. ونكتب الكتاب ونجيب
عريسنا وعروسته معانا على « مغاغة » ..

شرع « زين » والفرحة تقفز من عينيه : سيكون فرح العمر ..

يبقى حديث « مغاعة » كلها وبلاد الغروب .

طاب خاطر « همام » لرد فعل شقيقه والعامر قلباهما بحبه الشديد واختلج قلبه بالسعادة والسرور وشرد فكره في « ناجية » وجمالها وفتنتها وصورة الوشم الساحر في زرقة المشوبة باخضرار على ذقنها .. وعينيها الساحرتين .. وصوتها المرتعش الانشوى الرقيق الذى ملأه شجنا وطربا .. وطولها الفارع المنسق فى حليتها البدوية الوقورة والمطرزة بخرز يضوى فيبهر عين الرائي .. ابتسم « عثمان » وهو هائما .. رأى شقيقة « زين » الذى كان يرقبه منذ برهة طويلة حالته هذه فطفق سائلا : فى حاجة يا « همام » ؟ .. مالك ؟

ولكن « همام » هناك فى البعيد حيث تسكن « ناجية » من خياله .. وما انفك « زين » قائلا : لا يا أبو الرجال .. أنت متيم بالفعل بحبها . ووجه حديثه لشقيقه « فواز » : حالته لا تحتمل تأخير .. لا بد أن نسرع به نحو طبييته .. فلا أعلم منها بدواه يا ولداه ..

أجابه « فواز » جهزنا كل حاجه وكلها يومين ونتوجه إلى « نجع العرب » كل ذلك ولا زال « همام » هائما ومنعزلا عن الوجود مع فتاته هناك .

هز « زين » رأسه وهمس : لا يلومك إلا من لم يذق الحب ، ولم يشفه الهوى .

ثم مصمص شفثيه في أسى وندت على وجهه زفرة أسى طويلة.

* * *

بدأت السهرة لتوها بقصر الخواجة ، الصالة الواسعة تضج بالبهوات .. العطور الثمينه تفوح من الاجساد البضة العارية لذوات الحسن من نساء البهوات والبكوات ورجال الثروة والمال .. اختلطت الضحكات الرنانة بقرع الكؤوس وجلبة الندامى وثرثرة الرجال والنساء .. وقف الخواجة في بذلته السوداء « اليسموكن » البراقة يختال كالطاووس المزهو بريشه المزركش صارخ الألوان .. أشار إلى راقصة القصر « عزيزة » . هرولت إليه وهمس لها : اين نشاطك الليلة انت و « العنتبلى » ؟ .. أريد رؤية رقص شرقي يجنن مع صوت « حسونة العنتبلى » . أنا عايزك تهلبى الأجلاف الفلاحين ومن هم عايشين في دور البهوات ..

أجابته هامسه في نبرة عتاب : ومتى ترحم أنت قلب « عزيزة » ؟ .. « عزيزة » التى حطمت قلوب الرجال ! .. أشاح لها بيده في ضيق قائلا : روحي لشغلك يا بنت « منبىة ! »

داعب « حسونة العنتبلى » الناي وراحت « عزيزة » تتمايل وتبختر وترتعش بقوامها الرائع وعجيزتها المستوية .. ساقها المدملجتين وطولها الفارع الممتلىء يأخذان بمجامع القلوب

ويطيشان بالعقول السكرى من خمر الكؤوس ومن سحر « عزيزة »
ورقصها الفاتن . وجاء صوت « حسونه العنتبلى » شجيا مع الناي
الحزين فكان لها وقع الوجد الحلو يصدق بكلمات أغنيته :

حرام عليك رق يوم ... حرام عليك خلتنى لوم
ما بين عوازلى وحسادى انا ... انا انا عايش لليوم
الى تصافينى فيه ... وتوافينى فيه

وترحم يا ظالم عذاب فؤادى
اه م الالم اه م الشجن
اه من عذاب قلب بعد الحب

ما فاتوا وسابوا للوم عزالوا
حرام عليك رق يوم .. حرام عليك خلتنى لوم
خلتنى لوم

كانت آهات « حسونة » تتفجر جراحات بقلب وكيان « شوكت
ناصر » الذى ارغمه ضعفه وهوانه أن ينزوى فى ركن بعيد .. مهمل
.. وخلف الجميع .. تحرك الآهة الماسى فى كيانه وروحه جراء
غرام « عزيزة » التى ترقص أمام ناظريه الآن .. وهى ملكية مباحة

هذه الكلمة .. بيه ! بيه ! .. ودع الكلمة مع اخر شئ قام ببيعه .. خلصته الكلمة من شلال الدموع المتدفق من عينيه .. رفع رأسه ونظر من خلال دموعه وبصره الغائم لصاحبه الصوت وإذ بها «وصيفه» خادمة القصر .. أنت ؟ .. أنت يا «وصيفة» ؟ ..

عادت قائلة : خذ .. خذ كأسا يابيه ؟ ...

مد يده المرتعشة الواهنة .. ازدادت رعشة يده .. اضطرب الكأس في يده .. انسكب نصف الكأس على ملابسه وهو لا يدرى ولا يشعر غائبا عن الوجود .

وما أن تلعب الخمر برأسه تتركه يهزى ويغمغم .. اشتد به الأمر .. علا صوته في احتداد كأنه يواجه عدوا يقف أمامه .. وما لبث صار خائثا وبأعلى صوت يسب ويشتم الخواجة ويصفه بالخنزير النذل .. يأتي إليه خدم القصر يحملوه ويلقوا به خارج أسوار القصر وهكذا في كل ليلة .

سأل أحدهم ذات مرة الخواجة : لماذا تصبر على وقاحة الرجل ؟ ..

أجابه الخواجة ساخرا منه ومن سؤاله قائلا : أنت رجل عبيط ! .. إنه تافه مهبول ومخمور - أتضرني وقاحته ؟ .. وهو لا يساوى شيئا

عندى حتى أفكر فى قتله أو دفنه حيا ... انا الذى قررت أن يبقى هذا
المعتوه على قيد الحياة .. أتدرى لماذا ؟ ..

لم ينبس الرجل ببنت شفة وبدا كالمشدوه ، والغرابه تكسو
ملامحه .. علم الخواجه منه الجهل بالجواب فقال له : أنا تركته عبرة
لك ولأمثالك - لتعلموا أن مصير البهوات الفلاحين عندى كهذا
الأخرق المعتوه .

تركه السائل مرعوبا ومذعورا وهو يقول فى نفسه : كأننى حادث
الشیطان ... لا يمكن أن يكون ذلك الرجل آدمى أو ينتمى إلى
البشر ..

وعلى غير العادة وهو فى حفلته جاء حولى الدائرة وهمس له فى
أذنه ، تأبطه الخواجه وانزوى به إلى ركن بعيد منفردا به وهمس
الخواجه له : لم أسمعك ... ماذا قلت ؟ ..

- قلت عندنا أشغال فى الأرض وجميع فلاحين الغروب امتنعوا
عن العمل ..

رد الخواجه فى استغراب ودهشة : جميعهم ؟ ...

- نعم يا بيه ؟ ..

- كل الفلاحين فى الغروب وبلاده امتنعوا .. حتى فى شم ،

ودهروط ..

- نعم يا بيه ؟ ..

- طيب سالت عن فلاحين فى طنبدى ؟ ..

- يا بيه فلاحين طنبدى يعملون فقط فى دوائرهم وفى أراضيهم لا يعملون خارج زمام بلدهم ...

صمت الخواجة فى غضب وضيق وامتلأ غيظا وظل مطرقا فى صمته وسهومه ، أعاد خولى الدائرة سؤاله عليه : دبرنى يا سعادته البيه - ما العمل ؟ خصوصا وأن موسم جنى القطن اقترب وعندنا سبعمائة فدان قطن كيف العمل يا بيه ؟ ..

بدر فى مخيلة الخواجة « الشيخ خضر الغرباوى » وأولاد « الدرايسي » .

عض نواجذه وهمس قائلا : ولو أيها الأجلاف ؟ ..

سأله الخولى : قلت حاجة يا بيه ؟ ...

نظر اليه الخواجة فى ضيق : لا ... لا شئ ...

ثم صمت برهة مفكرا وعاد للخولى قائلا : اذهب الليلة لعصابة « جابر الأعرج » ... أتعرفهم ؟ .

- كلهم ... « معداوى » .. و « أبو سريع » .. و « الزنفلى » ..

والزعيم طبعاً لهم « جابر الاعرج » ..

- تمام بلغهم يقابلوني بكرة في الاستراحة على النيل بعد منتصف الليل .

- خلاص يا بيه ... أمرك

ويتركه الخولى وينصرف ، وما انفك الخواجة عائدا لحفلة .

* * *

كانت حياة (ماجى) قبل حب « زين » مقفرة موحشة خاوية ...
الآن بقى لقلبها آمال ... آمال تربطها بالعالم والحياة من حولها ..
فلاغرو وان هذا الحب تعلق برجل حقيقى وأزهري ومن نبت هذه
الأرض الطيبة التى ولدت فيها وعاشت فى أكنافها .. وهى أرض
مصر وفى حضن النيل السعيد وعلى بقعه رائعة من ارض « مغاغة » لا
يبعد قصرها عن النيل سوى مائتى متر بالجانب الغربى .

جلست وحيدة فى غرفتها تاركة الحياة الصاخبة لأبيها وحفلاته
ومجون حاشيته وعربدتهم .. أغلقت غرفتها وانكبت تقرأ فى نهم
وشغف كتاب من كتب السيرة للرسول الاعظم اهداه لها « زين » ..
استحالت كتلة من الإعجاب بسيرة أعظم رجل انجبته البشرية ..
وبدا لها النبى هالة من النور البهى والإجلال والجمال تتوق إليه

الأرواح الظمأى إلى الأريحية العطرة ونبع التوحيد ...

كان « زين » حدثها طويلا عن الإسلام وعن رسول الله وأهداها كتابا في التوحيد ونسخة من القرآن الكريم غير كتب السيرة ، ودعا لها أن يفتح الله عليها ويشرح صدرها للإسلام .

شعرت « ماجى » بأن نورا يقذف في قلبها وكيانها ويسرى في جميع خلايا جسدها .. إنه نور الإيمان ، حينما تنهأ النفس لحضرته وجلاله .. أحست بإحساس لم تمر به من قبل وكأنها تولد من جديد .. وأن قوى علوية تأخذها نحوها وهى تسايرها برغبة محمومة ومليئة بالسرور والسكينة والراحة والأمن .

شهقت ثم زفرت فى قوة زفرة طويلة كأنها أخرجت معها تلال الظلمات التى جثمت عمرا على قلبها .. وكأن هذه القوى تطرد من داخلها الأدران والاوزار وتهبى الروح للنور الجديد السرمدى الخالد .

وهى على هذه الحال وإذ بروحها لا بلسانها وبقلبها لا بعقلها تنطق : الله .. الله

وتبعا أردفت : لاله إلا الله ..

نطقت بالتوحيد وبصوت مرتفع ، خرج عفويا دون أن تدري ..

نظرت حولها .. هي تتحسب أن يكون قد سمعها أحد .. قامت وفتحت باب غرفتها ونظرت يمنة ويسرة لم تجد أحد .. اطمأنت ودخلت ثانية ثم أغلقت بابها .. عادت فقرأت في صمت سورة الفاتحة وأعدت قراءتها مرات حتى أيقنت من حفظها .. بعدها أغلقت المصحف .

أطلقت العنان لخيالها حيث يسكن فيه حبيب القلب وحده مهيمنا على مملكة الخيال وحده .. وذاك هو الفكر والسهد اللذان وصلابها حتى تباشير الصباح .. وهى سيرة كل ليلة مع مواعيد الخيال .



اصطحبت « أم الدنف » معها « زهرة » وتوجهتا سويا نحو « الشيخ المرجوشى » تركت أم الدنف « زهرة » فى صالة ضيقة قليلا بمنزل الشيخ - ودلفت هى داخله إليه فى حجرته .. روائح تنتشر بالمكان تزكم الأنف .. بعد برهة خرجت من عنده ونادت على زهرة .. دخلت « زهرة » تتبعها « أم الدنف » وهى تقول لها : ادخلى بقدمك اليمنى يابنيتى وسمى اسم الله وقفت « زهرة » شاخصة دون حراك ، وهرعت « أم الدنف » جالسة بالقرب من الشيخ وخاطبته : زهرة !... هى زهرة !.. ست الستات ! .

جلس الشيخ المرجوشى فى ملابس الدراويش ، ثوب مرقع ، على رأسه طربوش وفوقه عمامة خضراء .. قوى البنيان كالفيل ، وفى رقبتة تدلى عقد كبير تنتظم به حبات سوداء لامعة - بيده اليمنى أمسك مسبحة طويلة تتوسط حباتها خرزة زرقاء كبيرة ، وفى يديه خواتم كثيرة ذات ألوان متباينة تسترعى الإنتباه .. أمامه مبخرة يلقي بيده اليسرى بالبخور فيها من آن لآخر فينطلق الدخان بكثافة وأمامه كتاب كبير باهت الغلاف وأوراقه صفراء قديمة .

ألقى الشيخ بالبخور فى المبخرة فاندفع الدخان بكثافة مطبقا على جو الغرفة ! راحت « زهرة » تعطس وتشيح بيدها لتبعد الدخان عنها حتى يمكنها التنفس .. خاطبتها « ام الدنف » اعطسى .. اعطسى .. واخرجى كل شئ ردى من جسدك .. الدخان بركة من الشيخ المرجوشى .. صرخ الشيخ معنفا « ام الدنف » : اخرسى ياست انت .. الكل يخرس فى حضرة الأسياد لا صوت .. لا همس .. ولا حركة .

راح يغمغم ويتمتم بكلمات مبهمه وصوت غير معلوم المفردات وهو يمسك مسبحته الطويلة عند منتصفها من الحبة الزرقاء واخذ يبرجل ويرتعد رعدة قوية ويرتعش ثم أخذ يتلو بصوت متبتل عزيمته « اقسمت عليكم ايتها الأرواح العلوية والأجسام النورانية بحق بسم الله الرحمن الرحيم وبحق الاسم الذى أوله ال واخرة ال ال شلع ال وبحق اها شرا هيا ا هيا هها يا نما هيا

ادوناى استباؤت ال شراى إن تجلبوا محبة « زين حواء » إلى

« زهرة بنت نعيمة » وأن تجعلوه لاينام الليل من جها وعلى
لسانه دوما اسمها وأن تجعلوا ما عداها عنده قريح المنظر مكروه
المخبر الوحى الوحى الحين الحين العمل العمل الساعة الساعة .

ثم صمت الشيخ وهو يحرك شففيه دون صوت .. ثم ارتعد
وارتعش فى قوة ثم عاد إلى اتزان هادئا ، تحولت زهرة إلى كتلة من
الرعب والروع وخاطبها الشيخ : انت زهرة « بنت « نعيمة » ؟ ...

ولكن زهرة « صامته ومعقودة اللسان .

أعاد سؤاله عليها دون إجابة من « زهرة » ..

أجابته « ام الدنف » : نعم يا سيدنا الشيخ ... صح .. صح ..

طفق الشيخ قائلا : ترد هى .. ترد صاحبة الحاجة ..

راحت « زهرة » تغغم بكلمات متقطعة .. صصص ...
زهرة . نعيمه ...

الشيخ وقد علا صوته : نجمك نارى .. غضبك سابق لحلمك .
وبغباوتك وقلة عقلك ضيعتى حبيبك من قلبك .

« زهرة » وقد هدأ روعها واطمأنت قليلا وفى ارتياح قالت مؤكدة
.: صح .. صح ياعم الشيخ ...

عاد الشيخ يههمهم ويغمغم وشرع قائلاً : ناظرك على طريق واحد ، انت وحيبك فوق حصان أبيض ، لكن .. لكن بينكم حرباية لعوب تقف بينك وبينه راكبة جمل أسود ..

وفي غرابة ودهشة وانكسار ترد «زهرة» : جمل اسود! .. انا عمري ما رأيت جمل اسود؟! ..

الشيخ وهو يههمهم ويبرجل : اى نعم .. جمل اسود .. يحمل خصم أو عدو يظهر في الكشف باللون الاسود هو أو أى شئ ملازم له .

صمت وعاد يلقي بالبخور وهو يتلى عزيمته وما طفق قائلاً : سأجلب لك حبيك وأرجعه لك ذليلاً يقبل قدمك ويمسح الدمعة على خدك .. لكن عليك انت واجب ومهمة ، لا بد أن تقومى بها وتنفيذها ...

« زهرة » فى خفه ورعونة : الحقنى ياعم الشيخ .. الحقنى بها .. ماهى ؟.

وفى تودة وأناة أردف : عينك تبقى على حبيك ، تراقبيه هو والبنت - بنت الخواجة .. تعرفى متى وأين يتقابلان، ثم تفضحى أمرهما عند الخواجة .. أبو البنت واعر جبار ويمكن يقتل البنت .. المهم سيفرق بينهما .. ويرجع حبيك لك يقولك :: شبيك لبيك ..

عبدك وملك ايديك ... خلاص انتهى موضوعك وحاجتك قضت
يا بنت « نعيمة » ...

صمت واخرج حجاب من جيبه وأعطاه لها وهو يقول : تعلقى
الحجاب في شجرة عالية في مهب الريح .. وكل ماتهب الريح
ويتأرجح الحجاب قلب حبيبك سيهتز ويرتعش بحبك مثل الطير
الذبيح . وفي وصفة لازم تحضرها وتجيبى كل حاجة فيها حتى لو
من تحت الارض وروحى بلاد السند والهند .

في تودد ورجاء وخفة طفقت « زهرة » سائلة : ما هى ؟ .. ما هى
الوصفة ياعم الشيخ المرجوشي .

خمسين جرام حلتيت ، عشرة جرام كوم عفريت ، عشرة جرام
دهن خرتيت ، عشرة جرام سنتليت على حفنه تراب بيت وخمس نقط
زيت وتتركهم فى الندى وسط الزرع والغيط ، وتنقعهم فى خبط
ملط وعليهم قدحين مياه من جرة البيت وترشى المنقوع على سكة
حبيبك وعته البيت .. ومع السلامة يا بنت « نعيمة » وبعد شهر
تعودى مرفوعة الراس والقيمة .

أشاحت « ام الدنف » إلى « زهرة » وهى تقول : روحى انت يا
زهرة » .

... انتظرينى فى الصالة ..

وتجلس « ام الدنف » وحيدة مع الشيخ ، تضع يدها في صدرها وتخرج بعضًا من أوراق النقدية تعطيها للشيخ ، يمسكها الشيخ ويعدها ثم يعترض قائلاً : فقط :.. ثلاث جنيهات فقط .

وكزته في صدره وقائله له : ثلاث رصاصات لما يفجروا صدرك .. زيادة عليك .. وزيادة عليك يا بن « سعيدة الخبازة » .. والله أفضحك واهتك سرّك

الشيخ في تودد وملاطفة واضعا يده على فمها : العقل يا « ام الدنف »

ارجوك .. لا تخربى بيتى .. خلاص .. خلاص ... خلاص يا « ام العقارب »

عقربة لما تلدغك .. قليل الحياء .. صحيح يا أولاد اللي اختشوا ماتوا ... انت عمرك مسكت قلم يا جاهل يا بن الجاهل يا نصاب .

... قال - يقولى : كوم عفريت .. عفريت لما يلبسك يا بن « سعيدة الخبازة » .. عقبك لك الندامة والصدامة ليوم القيامة يا بعيد

وتخرج حيث تنظرها « زهرة »

* * *

مرت ثلاثة أعوام على مشروع تعليم الصغار .. أينعت العقول الصغيرة وأثمرت .. حفظ الكثير من الأطفال القرآن وختموه .. وأعداد كبيرة التحقت بمعهد المنيا الأزهرى ونفقتهم كانت على المشروع .. فرحة الآباء لا توصف بأولادهم وازداد الوعي وأحبوا العلم والتعلم .. درس الأطفال إلى جانب القرآن مبادئ اللغة العربية وأصولها والمطالعة .

تشجع ذوو والأطفال نحو تعليم أولادهم وقويت إرادتهم وتجروا على عدوهم وعدو العلم وهو الخواجة .. هجر جميع الفلاحين أرض الخواجة .. منهم من رحل إلى بلدان بعيدة وقد أثر الغربة والكد والشقاء على حرمان أبنائهم من الدرس والتعلم . وقد زرع فيهم هذه الجراحة « عثمان » .. أبو الرجال .. كما كان « للشيخ خضر الغرباوى » دور كبير إذ منع أهل الغروب جميعا من العمل في أرض الخواجة .. تعاطف أولاد البلد مع « همام » وإخوته وتناقلت سيرته حكاوى الفلاحين في المزارع والطرق والأسواق وحتى في المساجد ... فأصبح « همام » في نظر الجميع بطلا شعبيا مثل « طومان »

بأى « أو كالفاتحين

ثلاثة سنوات فقط مرت تساوي عشرين سنة من حيث الإنجاز الذى تحقق .. والثمار التى قطفت .. ليس تفوق الأطفال فقط وعلو نجمهم فى سماء النور والعلم ولكن ماتم من تقوية الإرادة وانتشار

الوعى له أكبر إضافة إلى قوة الثبات على الطريق إزاء تحديات العقبة الكؤود التى أوشكت أن تنقشع عنها غيمة الخوف والفرع والرعب فتتكشف وتتعرى ويسقط عنها زيفها .

ثلاثة سنوات مرت أوصلت « زين » وصاحبه « الشيخ طه » إلى السنه النهائية وإذ بهما يتوجان الأوائل على الجامعة - الأول « زين » با متياز والثانى صديقه « الشيخ طه » ... وقد تم ضمهما لهيئة التدريس ليكملا الدراسات العليا على نفقة الجامعة .. كانت الفرحة غامرة لأولاد « الدرايسي » وذويهم وأهل « مغاعة »

وأرسلت « ماجى » خطابا مع « وصيفة » لأنها لم تتمكن من مقابله حبيبها تبلغه فيه تهانيها الحارة عن نجاحه وتفوقه وتصف له فيها مدى فرحتها وسرورها البالغين وافتخارها به وبهذا النجاح .

أخبرته بجانب التهاني بالنجاح أنها اهتمت للإسلام وهى الآن تصلى وتقرأ القرآن وفى الكتب التى أهداها لها .. وذكرت بأنها تدعو له فهو سبب هدايتها وكذلك الحب الذى جمع بين قلوبهما .. وأنها تعيش فقط لعبادة الله وللمحب ... الحب الذى انار حياتها وظلام نفسها فكشف لها الحجب عن النور الأعظم .. ارتباطها بالحياة كان لذلك الحب وتمسكها به .. وسيبقى لآخر عهدها بالحياة .. خالدا فوق الزمان .. دمت لى حبيبا وحدك .. هكذا ختمت رسالتها .

المخلصة ماجى

الرساله لم تخطها بقلمها ولا بيدها ولكن شفتها روحها بمداد
الشعور المتدفق من نهر الحب المترع بالهناء والذى يختلج بين
جنبها .

لم يدر « زين » أنه يقف على قدميه على الأرض .. ولا يشعر بوزنه
ولا بجسده .. أحس أنه استحال لروح غريب الجمال يرفرف
باجنحة من ضياء القمر ... كأن الحب بعثه مخلوقا آخر .. إلى شى
أثيرى ... لا يحس ولا يلمس .. وأخذ يتحسس جسده بأنامله غير
مصدق لفكرة وجوده كمادة وجسد !!.

وأطلق العنان لخياله لكأنه في عالم آخر لا ينتمى لهذا الكون ومعه
حببته « ماجى » ترتدى رداء العرس الأبيض الملائكى .. ليس دونها
مخلوق في هذا العالم .. يمسك يديها وعينيه صوب عينيها ورحل
عبرهما وإذبهما بحر أزرق لا نهاية له وسابر الاغوار ليس له قرار ..
العالم من حولهما يغمره نور خافت يميل إلى الخضرة .. والارض
بساط ممتد لا آخر لها .. وفراشات ملونة ومزركشة تطير من
حولهما تخفض أجنحتها وترفعها في خفة وسرعة كأنها تحية سلام

وأمن وأمان للعاشقين .. صوت أغنية الكروان تصدح في الأفق ..
نسمات بليلة عبقة ومحملة بعطر اليا سمين في ليلة ليست باردة تقبل
الوجنات الساخنة من لهيب الشوق وكأنها تصاريح للعشق
والهوى!!!.

سال نفسه : أهذا هو النعيم المقيم ؟ .. أهو الفردوس
المفقود؟..

لا .. وانما العالم الذى يدخلك فيه خيال العشاق وروعة الحب
.. إنهم وحدهم العشاق الذين يصنعون من الخيال عالماً وجناناً ..
هم القادرون على نفوذ الجسد ورداء العادة والطير محلقين بسر
وسحر وغموض الأرواح!!..

إن كل وعى « زين » الحاضر قد غاب واحتجب إزاء هذه
المشاعر وتلك العوالم التى نظرها وأبصرها وعاش فيها مرور الحلم.
إن ذلك كله سر الحب وسر المرأة؟.. المرأة تلك الفتنة التى
حيرت العقل وأطاشت بلب اللبيب .. وأذلت بحبها عز العزيز ..
وأعزت بحبها ذل الذليل ... وراودت صلابة القسوة لدى الرجولة
فأحالتها شعوراً طفولياً بريئاً يستنيم على راحة يدها .

هز « زين » رأسه وأوماً إيجاباً وقبولاً وموافقة لأمر الحب
والتسليم والإذعان لسلطان الهوى .



أوشك موسم جنى القطن على البدء ... والفلاحون غادروا أرض الخواجة .. جميع الأراضي لا تطؤها قدم فلاح واحد .. لأول مرة في حياة الخواجة يتعرض لهذا الموقف العصيب ... وهو الأمر الناهى الذى تكفيه مجرد إشارة ليهرع الجميع منكفئين عند قدميه ..

تغير الحال وتبدل المآل .. هاهى « مغاغة » ونواحيها وكافه بلدان الغروب تقاطع اراضيها والعمل فيها .

جلس منكفئاً فى صمت وسهوم ثقيلين يلعن فى نفسه أولئك الفلاحين الأجلاف غير مصدق لما حدث ويحدث .. ما كان ليتوقع ذلك فى أسوأ كابوس يقتحم عليه هداة نومه .. تساءل : أى عمل عملوه أولاد « الدرايسي » جعل من هؤلاء الموتى أحياء ؟ .. أحياء يقررون ويفعلون ؟ .. تبا لأولاد « الدرايسي » ..

لقد عكروا حياتى كلها .. تعدوا كل الحدود .. صارت ارضى مهجورة كالقفر الموحش .. انه الضياع والعدم ! .. احتد « فرعون » وقد زفر زفرات ملتبهة كأنها فحيح أفعى جريحة فى حالة هياج وطفق قائلاً لنفسه : كان بينى وبين أولاد « الدرايسي » حالة من اللاسلم واللاحرب - كنا سويا راضين بهذه الحالة .. بيد أنهم أبقوا على الأولى وغيروا الثانية .. فتحوا النار وأشعلوا اللهب .. ليكن .. لقد

اختاروا جحيم!.. فليكن جحيماً اذن!.....

والآن لابد من عودة الفئران لكهف الخوف والرعب من جديد .. لابد من قطع طريق التنوير عليهم! .. لابد من قتل الوعى عندهم!...

قفزت إلى خاطره صورة الشيخ « خضر الغرباوى » فارسمت ابتسامة بشعة تقطر هزءا وسخرية وتحقيرا وقال فى نفسه : حتى الدرويش - ما يسمى « خضر الغرباوى » .. حمل فلاحى الغروب على العصيان ورفض العمل عند أسيادهم .. هذا الدرويش الأبله ... ستحل نقمتى وسينزل غضبى بالجميع ..

جاء اليه خولى دائرته وهو يضرب كفا بكف ويولول : عليه العوض ومنه العوض .. القطن سيضيع منا .. موسم اسود .. أين الأنفار ؟ ... أين هم لجنى المحصول ؟..

سمعه الخواجة فاستشاط غضبا وانفجر صارخا : اذهب إلى الجحيم انت والقطن يا ابن القحبة! .. فليتحرق القطن وانت ! .. المسألة فاقت محصول القطن يا حمار إنها اكبر بكثير .. انت اهل ! .. غور من وجهى .. أنا لا أريدك ولا اريد الفلاحين الكلاب !!...

ارتعب الخولى وتركه وهرب على الفور خوفا من بطشه .

عند ذلك صمت الشيخ « بركات » وتنفس الصعداء .. هز رأسه

في عظة وتدبر بالغين .. سأله سالم : تري - علي أي شيء ينوي الخواجه يا عم ؟

أجابه « مأمون » : ربما ينوي سوءاً بالطبع ! .. تجاه جدي «همام» وإخوته ...

نظر إليه الشيخ « بركات » قائلاً ليس فقط جدك «همام» وإخوته، انه يضمم السوء لكل أولاد البلد .. إن « مغاغة » كلها هدف الآن لحقده وغله وعداوته ..

قال سلمان : تجسدت ملامح الصراع واستبان طرفاه بيد أن الخواجة وصلت شحنة العداوة لديه ذروتها .. ويهيأ لي أنه علي وشك الانفجار .

وسأل « سالم » وماذا ستفعل « زهرة » ؟ وماذا عن « زين » ، وإبنة الخواجة « ماجي » ؟ الحديث ذو شجون

نظر اليه الشيخ « بركات » والتأثر البالغ يكسو محياه وقال : كل ذلك ستعرفوه .. لا تسبقوا الحوادث .. وراح يقص في أسلوبه الممتع والأخاذ ..

عمدت « زهرة » علي التقرب من « ماجي » ثانية مصطنعة التودد والملاحقة ولأن صاحبها طيبة القلب وثقت بها .. إلا إن « زهرة »

أخذت تترصد لها حتي عرفت كل شئ بينها وبين « زين » وأماكن ومواعيد اللقاءات بينهما .. ولكي تؤكد لإحدى الخادومات في قصر الخواجة هذه العلاقة أخذتها وأختبأتا بين المزارع ورأتا معا مقابلة « زين » وحبيبته « ماجي » .

أذاعت الخادمة هذا الخبر بتشجيع من راقصة القصر « عزيزة » التي تحول عشقها للخواجة الي نقمة عليه جراء كسره لقلبها ودونما ادني مراعاة لها كإنسانة .. وفرحت « عزيزة » وكادت تطير لانتشار خبر قصة الحب بين « ماجي » و « زين » فلما أطمأنت هي أن الجميع قد علم بالأمر .. ذهبت الي الخواجة منتشية وهي تتبختر في مشيتها متعالية تنظر من فوق أرنبه أنفها ثم قالت «

أظن يا سعادة البيه إن الناس متساوون .. وإن الجميع أولاد تسعة .. ومن ينسي ذلك - ففي أوقات رغما عن الانسان يعترف بأن الناس متساوون عارف ما هي الأوقات التي أقصدها ؟ نظر الخواجة بغرابه دون رد .

فتابعت هي تجيب علي سؤالها : إنها اوقات الحب - الوقت الذي ينزل العشق فيه بالقلوب .. ساعتها لا فرق بين أمير وخفير ولا بين سيدة وخادمة ولا بين صالح وطالح .

نظر الخواجة لها في هزء وابتسم ساخراً : منك نستفيد يا حكيمة

العصر والأوان !!

ابتسمت هي في هزء مبادلة سخريته بسخرية قائلة : إثبات كلامي
يا معالي البيه الكبير ابنتك !! ابنتك « ماجي » صرخ هو واقفاً وراح
لاطما وجهها في قوة طرحتها أرضاً وهو يقول بنتي أنا ؟ .. بنتي أنا يا
ابنة القحبة ؟

« عزيزة » وهي طريحة أرضاً ومتكئة علي كوعها الأيمن : بنتك
عاشقة « زين » ابن « الدرايسي » ويتقابلاً عند الساقية المهجورة
وعند الربوة في بستان النخيل .. الدنيا كلها عارفة إلا انت .. إلا انت
يا مغفل .. وأسأل خادمتك ، وأسأل « زهرة » ابنة شيخ البلد صاحبة
بنتك .

وثار كالمجنون وسأل خادمته وجاء بنت شيخ البلد أكدت له
هي والخادمة العلاقة وأنها قد رأتا « ماجي » وزين يتقابلان سرا
وبالليل ..

اندفع كتلة من الغضب والحنق وهو يصرخ منادياً : ماجي ! ..
ماجي .. واجتاز الدرج للطابق الثاني في جلبة واحدة ، دفع باب
حجرتها وكانت واقفة عند شرفتها المطلة علي حديقة القصر
الشاسعة ففزعت مرتعبة وهي تردد : دادى ! دادى .. ما الأمر ؟

انقض عليها وجذبها من كتفها صارخاً .. أصحيح ؟ أصحيح ما

سمعته من الخادمة وصاحبتك « زهرة » أصحيح أجيبني إذ سألتك :
هل صحيح ؟ .. انك عشقت ؟ أعشقت الفلاح ؟ .

« ماجي » كتلة من الرعب والروع وقد انعقد لسانها ..

ازداد هياج أبيها وطفق معاوداً صراخه : « قولي لي » انه غير
صحيح قولي لي أي شيء .. اكذبي علي .. ولكن لا تصمتي .. صمتك
يقتلني ! .. ولكن « ماجي » غائبة عن الوجود تهرب بكامل وعيها
وتقف من لخبطتها الي مصير غرامها .. حدثت في الخطر الجاثم
والمحذوق بحبها .. لكن ماذا تفعل ؟ لاح لها ليل الفراق الطويل في
خيالها فوجدته بشعاً وقاسياً ومرعباً !!

لم تشعر بوجود والدها ، ولم تعد تسمع صوته رغم ثورته ، ولا
ثمة إحساس لديها بضرباته المتتالية المتتابعة علي جسدها الرقيق .

فلما يأس منها وأيقن لا محالة بصدق رواية العشق ، أمسك
جانبى رأسها بكلتا يديه وثبتها في عنف وخاطبها قائلاً : لقد عشقت
مثل أمك !! .. طالما سألتني عن أمك دون اجابة مني .. الآن ..
والآن فقط أخبرك : عشقت أمك وخانت فقتلتها ودفنتها اسفل
قصري هذا !! ألا تعرفي عشقت من ؟ لا تعرفي .. هي عشقت
المعتوه المخبول العره المدعو « شوكت ناصف » قتلها هي ودفنتها
.. لكن هو لا يستحق ميتة واحدة .. ولكن يموت كل يوم مئات

المرات .. جعلته يتمني الموت فلا يجده ، لأن الموت تركه وعافه
منبوذاً ذليلاً مشرداً تدوسه الأحذية .. وأنت بدورك لن أقتلك ..
وإنما سأتركك تبحثين عن الموت عند جثة غرامك فلا تجديه ..
سأنفيك من « مغاعة » ومن أرض « مصر » كلها .. سأرسلك إلي
« باريس » حيث تعيش خالتك هناك ..

نادي إلي خفر القصر وأمرهم بحبسها في غرفة أسفل القصر
وحذرهم من خروج سرها وهددهم بالقتل حتي ينهي إجراءات
سفرها إلي « باريس »



نسما ت سبتمبر تهب علي الوجوه الكادحة طوال النهار الملى
بالتعب والكد في جني القطن .. غلاله حمراء من أشعة شمس
الغروب تكسو جبال البحر الأحمر في الجانب الشرقي للنيل فتبدو
لوحة فنان سحره الجمال فشفته روحه ونفثته إبداعاً غشي هذه
البقعة من الأرض .

النيل السعيد يتهادي في يسر وسخاء يقبل الزروع والورود
والنخيل ويدعوها لتستحم في كوثره المعسول .

بقية من يقظة النهار لم تزل في جلبة متراخية واهنة عائدة لدورها
في المساء لتهجع في الليل وتأهب ليوم جديد في البكور .

انسحبت آخر خيوط الضوء مع عودة الكروان إلى عشه مودعاً الكون بدعائه الأزلي .. وبدأت لتوها أصوات ليلية تزعج هدوء الليل الوليد نقيق الضفادع .. عواء الذئاب في الحقول .. صوت البوم وزعيقه .. تناول « يونس » وأولاد عمومته « زيدان » و « درغام » و « محروس » وبعض الفلاحين المقربين منهم عشاءهم انكفاً « زيدان » علي كانون به كوالح الذرة المشتعلة تحت « غلاي » شاي كبير ومن آن لآخر يضع في النار بعض الكوالح فتزيد اشتعال النار .. وراح الجمع يتجاذب أطراف الحديث .. تنحنح « محروس » ثم قال في صوته الأَجَش : الفلاحين كلهم خاصموا أرض الخواجة الملعون .

أردف « درغام » كان أول واحد في نواحي « مغاغة » يجني القطن هو الخواجه .. كان كل الفلاحين والنسوان والصغار مثل النمل في أرضه . لكن يا ولداه !!

قاطعه « جاد الحق » ساخراً : « بتقول » يا ولداه « درغام » .. كأن ابن الكلب صعبان عليك يا خايب .

لا لا .. والله ما اقصد يا ولد عمي .. انا بقولها استهزاء فقط .. والله هو ما قصدته .. استهزاء به ..

وتحدث « زيدان » بفكاهته المعهودة : انتم واجعين رؤوسكم

بسيرة المخفي .. الله عنه ما يجنى لا هو ولا أمه ،، ويارب موسم
الجنى هذا يطلع بعمره ونسمع خبره يارب .

الجميع وهم يضحكون لوقع كلام « زيدان » : اللهم آمين ..

وبعد احتساء الشاي والسمر .. قاموا فوزعوا أنفسهم علي جهات
أربع لحراسة وحماية بالات القطن المتراسة .. والجميع يحمل
السلاح خاصة وأن الظرف ليل ويستدعي ذلك .

ثم استلقي الرجال جميعا من التعب والكد طوال اليوم .. غلبهم
سلطان النوم وساعده النسمات الطرية الحنونة التي تخدر القلوب
والعيون التي أضناها قيظ النهار الحار .

وبعد وقت قصير أو ربما طويل لم يدر أحد منهم قدره ، فزع
الجميع من نومهم علي صراخ رجل تشتعل النيران في جسده وفي
بالات القطن كذلك .. أذهلتهم الفاجعة وشلتهم المصيبة .. خرج
« جاد الحق » عن دهشته صارخا في الرجال أنقذوا الرجل ! انقذوا
« مخيمر » وجري ناحيته وقد خطف بيده بالات قطن فارغة فالقي بها
علي الرجل واخذه في حضنه وحمله بعيداً عن النيران المشتعلة في
محصول القطن .. عند هذه اللحظة انهار عليهم الرصاص من جهة
الغرب .. تعالي صراخ رجل أصيب بطلق ناري ثم هوي علي الأرض
جثة بلا حراك .. هرول إليه « يونس » تفحص وجهه فوجده ولد عمه

«دورغام» تحسس جسده وجده غريق في دماه والاصابة قاتلة بمنطقة الصدر .. هزه في عنف وهو ينادي عليه في غيظ وضيق وقنوط : درغام!! درغام!! ولكن دون صوت .. دون نفس يتردد في صدره .. مات الرجل .. قتل «درغام» !! . نادي «يونس» بأعلي عقيرته في غضب وغيظ : اطلقوا نيرانكم علي مصدر النار .. خذوا ساتر بسرعة .. ثم امسك بندقيته ونادي علي ولد عمه «محروس» قائلاً له : محروس .. النار !: أجابه «محروس» : أنا جنبك يا اخوي..

وراحا يزحفان سويا واقتربا من رجلين ، أطلق « جاد الحق » عليهما النار فأصاب أحدهما في مقتل فصرخ ووقع صريعاً .. حاول صاحبه أن يحمله فاصابه « محروس » فقتله فوقعت الجثتان متكومتين على بعضهما .. قام « يونس » قافزا نحوهما واتبعه ولد عمه .. هوي «يونس» عليهما أخذ سلاحيهما وأعطاهما لابن عمه ، أشعل نارا ونظر متفحصاً وجهيهما وجدهما « معداوي » والآخر «أبو سريع» .

فقال « يونس » لابن عمه « محروس » : الرجلان من عصابة «جابر الأعرج» وهو من رجال الخواجة .. اذن اتضح الأمر .. الخواجة وراء ذلك .. ليس لأحد مصلحة إلا الخواجة .. وسأل ولد عمه : تري كان مع الرجلين أحد آخر ؟ أجابه « محروس » : أكيد وقد هرب الباقون .. الرصاص كان يطلق علينا غزيرا وكثيرا .. ليستا

بندقيتين فقط .. تقديري أنها كانت عصابة كبيرة ..

تركا الجشتين مكانهما وعادا إلي أرضهما وجدا الرجل الذي كانت النيران مشتعلة به علي قيد الحياة ولم يتضرر كثيرا فأخذه الرجال وأعادوه إلي بيته وأخبروا « همام » الذي لم يزل في عرسه والحنة بيده ما حدث .. فترك عروسته « ناجية » واصطحب شقيقه « فواز » وخرج معهما أبناء عمومته وجمع كبير من اهالي مغاغة وسار الجميع في طريقهم نحو الحقول حتي وصلوا الي هناك .. وجدوا « دورغام » قتيلا ومسجي بملاءة .. والقطن لم يتضرر سوي ثلث المحصول ... ولكن شفي غيظهم جميعا مقتل رجلين من أفراد عصابة « جابر الأعرج »

قال « فواز » في غضب ورعونته المعهودة : وراء التعدي علينا طبعاً الكلب الخواجة ..

أشار له « همام » بأن يصمت وهمس له .. ليس وقته الآن يا أخي ، ندفن ولد عمنا ، ونجني محصولنا ونبيعه .. وبعده ما يقدره الله يكون .. اطمئن سيكون الدم بالدم .. والنار بالنار هل رأيت أخاك فرط في حقه من قبل ؟ هل رأيته تخاذل في مواقف الرجال حيث يجب أن يتقدمهم ؟

انفجرت أسارير « فواز » لوقع كلمات شقيقه وقال : لا يا أخي ..

معاذ الله .. انت الحكيم والنبيل والقوي فينا ... !!

كانت تباشير الصباح قد بدت تطل علي الكون وجاء أهل «مغاغة» عن بكرة أبيهم الكل يشارك ويؤازر ! استبعدوا القطن المحروق وراح أفواج من الناس يجنون القطن .. بينما انشغل أولاد «الدراسي» وأبناء عمومتهم في دفن أخيهم ..

أرسل «همام» إلي أهل القتيلين ليأخذا جثتيهما وأبلغهما بأن أولاد «الدراسي» هم قتلة الاثنين جراء تعديهما عليهم وعلي محصولهم ورجالهم وقتلهم لرجل منهم .

وقاموا بدفن «دورغام» وأخذ العزاء فيه ثلاثة أيام .

لم تتحرك حكومة أو سلطة ، لأن القتل ليسوا من البكوات أو البشوات .. الحكومة و السلطة وجدا فقط لحماية هؤلاء وحماية الأقليات الأجنبية صاحبة الامتيازات الممنوحة بسخاء لهم من عظمة أفندينا الخديوى .

جلس همام وحيدا مضطرب الخاطر هو يدرك تماما بأن قتل رجلين لا يقدم ولا يؤخر لدي الخواجة .. فهو ينظر إليهما باعتبارهما عبيدا أو مجرد حشرات .. ولكن من جهة أخرى فقطع أذرع للخواجة هو ردع لكل من يفكر بالتعاون مع الرجل .. بيد أن ما حدث ليس كافيا لدي «همام» وإخوته وأولاد عمومته .. تمت معادلة الدم بالدم ولكن بقيت

النيران التي نشبت في أرضهم وفي أجساد رجالهم الأوفياء لهم وهذا ما لا يمكن تجاهله او السكوت عنه .. ولكن لابد من ترتيبات قبل الإقدام على أي عمل انتقامي إزاء الخواجة .

هز رأسه موافقا في ارتياح لانتظار إنجاز ما يريده وتفرضه طبيعة الظرف



رتب الخواجة سفر ورحيل « ماجي » الي فرنسا وبالفعل تم سفرها بل نفيا علي متن سفينة متجهة الي موانئ فرنسا كان « زين » وصديقه الشيخ « طه » في القاهرة المعزول لم يعلموا بكل هذه الأحداث بداية من علم الخواجة بعلاقة ابنته مع « زين » وانتهاء بحوادث القتل التي وقعت

وكان الشيخ « طه » في زيارة لخاله « خليل سعادة » الذي يسكن في الحسين وهو يقوم بجلب الخضروات والفاكهة من الصعيد علي متن المراكب عبر النيل ويسوقها في أحياء القاهرة وبقي له سنوات طويلة في هذه التجارة .

التقي به « زين » فأخبره خاله بأنه كان منذ أيام في « مغاغة » وأن « الخواجة » علم بقصة عشق ابنته مع « زين » ولد « الدرايسي » وقد وشت بهما « زهرة » ابنة شيخ البلد والراقصة « عزيزة » وأكد له أن

التي أخبرته بهذه القصة هي « وداد الداية » وحكي له عن حوادث القتل التي وقعت وكيف إن أولاد « الدرايسي » قتلوا رجلين من العصابة التي هاجمتهم في أرضهم مقابل قتل ابن عمهم « دورغام » .

حزن « طه » حزنا شديدا لوقع هذه الأخبار واشفق علي صاحبه ورفيق عمره « زين » فكتب عنه هذه الأخبار ولم يبح له بشئ .

أجبرتهما الدراسة في الجامعة علي البقاء في القاهرة المعز أكثر من ثلاثة شهور وقد انقطعت أخبار « ماجي » عن « زين » فلا رسالة ولا رسول يطمئن ويسكن لهيب الاشواق المتقدمة في قلبه .

كان جالسا مطرقا وعيناه تلمعان وتدور وتتحرك فيهما دموع الحنين الجارف إلى محبوبته .. فلم يحدث منذ عرفها أن غابت عنه هذه الغيبة دون وصال ودون خبر يولد الامل في اللقاء او الاطمئنان عليها .. وبينما هو علي هذه الحال إذ خرج عن صمته فجأة وسأل صديقه .. ألم يأتك أى خبر من « مغاغة » يا شيخ « طه » ؟

ابتسم الشيخ « طه » ابتسامة ذات مغزى قائلا : أتقصد أخباراً عن الأهل أم الأحبة ؟

رد « زين » في ضيق : عن الاثنين

عاد الشيخ « طه » محاورا : لا لا يا صديقي أنا أريد التحديد .

صمت « زين » ونظر لصديقه في عتاب ولوم وهز رأسه .. أدرك

« طه » مغزى نظرتة فاخذ يلاطفه متوددا وقائلا : والله يا صديقي لا ..
لم أسمع شيئا .

وضع « زين » يدة علي خده واطبق عليه حزن عميق وبقي كتمثال
دون حراك .. تأثر الشيخ « طه » لحال صديقه وطفق قائلا : إن شاء
الله تطمئن قريبا .

ولكن « زين » كان منفصلا عن العالم تماما .. ولا يزال في صمته
دونما ثمة رد على صاحبه يؤكد أنه سمع كلامه .

مرت عدة أيام علي هذه الحال .. قضى « زين » نهاره في شرود
وسهوم وصمت .. وليله أرق وسهد .. إلا أنه عزم علي مغادرة القاهرة
المعز متوجها إلي الصعيد ليقف علي الأمر ويطلع إلى ما حدث -
ولكن في ذات اليوم تأتيه رسالة من « ماجي » في باريس إلي جامعة
الأزهر فقام باستلامها وهو في غاية الفرح أعادت إليه روحه - وفتح
الرسالة وراح يلتمها بعينه في نهم وجاءت كلماتها :

عزيزي « زين » أنا لا أكتب هذه الرسالة بيدي انما انا املل
خالتي فلم تعد ليدي القدرة على مسك القلم منذ داهمني الشلل بيدي
ورجلي منذ شهرين بعد إن وصلت إلي باريس بعدة أيام .. وبعد أن
قام دادى بطردى ونفى من مصر على أثر علمه بقصتي أنا وأنت ..
كما أنني مصابة بتضخم في القلب .. حالتي ميؤوس منها كما قال

الأطباء .. إلا أنني لم آيس من رحمة الله كل ذلك هين علي إلا فراقك -
فما أقساه على نفسي ! .. إن حبك هو الأمل الذي يربطني بالحياة
ويعطيني العزيمة والإرادة علي تحمل المرض وتمني الشفاء .. الي
الملتقي يا حبيبي ! »

المخلصة للابد/ ماجي

لم تقو قدما « زين » علي حمله فوق وقع داخل حرم الجامعة ممسكا
بالرسالة في يده وعيناه تزرقان الدموع بغزارة .. أرسلوا الي صديقه
« طه » فجاء علي الفور مسرعا وأخذه وأسنده حتي وصل به إلي
مسكنهما .. كان « زين » لا يزل مطبقا علي الرسالة .. أخذها صديقه
من يده وطفق يقرأها حتى أتمها وقد امتلات نفسه حزنا علي صاحبه
.. ولكنه أيقن من فوره أن صديقه يحتاج لمؤازرته ومشاركته
والعمل علي التخفيف عنه - فقال وهو يقسم : أنها تحتاج إلي دعائك
أكثر من دموعك « زين » يا صديقي الفتك دوما رجلا قويا كالطود
الشامخ لتكون كذلك .. لا تؤثر فيك العواصف ! .. ادعولها بالشفاء
.. ليس الشفاء بعيد عن الله فسبحانه هو الشافي اياك إن تستسلم
أوتخور كن قويا بالله وصابرا علي قدره ومحسبا .

هدأت كلمات صاحبه من روعه وسكن سكونا لحظيا إلا أن

دموعه التي تجري لا ينقطع فيضانها .. وفي حنو بالغ يأخذه الشيخ «طه» في حضنه ويربت علي ظهره ورأسه وما انفك يجفف له دموعه الملتهبة والمتدفقة علي خديه وهو يقول لصاحبه : علام الدموع ؟ اتفقنا علي الدعاء لها بالشفاء .

غمغم « زين » بكلمات غالبتها العبرات : أنا صعبان علي - نفيها من الدنيا كلها .. أقصد الدنيا المتاحة لي إضافة إلي مرضها الخطير .. كان نفسي أكن بجانبها في محنتها .. ما أقسي حالتها يا « طه » ! .. إنها مريضة ومشلولة وغريبة .

وعاد « زين » للبكاء الموجه من جديد .. بكاء له نشيج يهتز له في عنف جسده كله .

والشيخ « طه » محاولا مواساته لينسيه بعض الشي ولو هنيهة ولكن دون جدوي .

زهدت نفس « زين » في الدنيا وكل شي .. حتي أنه يمضي يومه كله دون طعام إلا الفتات من الخبز .. لازمه الحزن وارتدت حياته رداء الكآبة .. معظم أوقاته وحيدا ساهما تصاحبه الدموع وليله طويل وقاسي .. مجروح الجفون ومسهدا .. فراح يذبل وتبدل نضارة وجهه حتي أسلم نفسه للوهن والاعياء .



جني أولاد « الدرايسي » محصول القطن وباعوه .

كان الشيخ « النجداوى » قد علم بكل الأحداث التي وقعت فجاء للاطمئنان والسؤال علي « ناجية » بنت أخيه وكان مسرور أيما سرور لأخذ أولاد « الدرايسي » حقهم في ذات الليلة التي قتل فيها ابن عمهم وردوا الصاع صاعين فقال : رجال زين ! .. رفعتم رؤوسنا في الجبل الغربي رحم الله أباكم كان رجل بألف رجل .

وانفرد « همام » بشيخ العرب ودار بينهما حديث لم يطلع عليه أحد صرح له « همام » بما في مكنون نفسه وما هو عازمٌ عليه تجاه الخواجة وذكر له أنه وإخوته لا يزال الغيظ يأكل قلوبهم ولم تشف صدورهم بعد وأنه وإخوته سيرمون بالنار علي الذي أشعلها .

وافقة الشيخ « النجداوي » وهو يربت علي كتفه وناظرا له نظرة إكبار واحترام وقائلا له : كل يوم يزيد احترامك عندي وتزيد غلاوتك في قلبي يا « همام » يا ولدي .. كنت أتمنى أن يكون لي عشرة من الرجال مثلك من صلبى .

رد « همام » قائلا : كلنا أولادك يا عم الشيخ « نجداوي » .. اطلبنا نكن أمامك ولو في النار .

قال شيخ العرب في سرور بالغ : الله يحفظك لي يا حبيبي .. اسمعني يا « همام » يا ولدي . أصغى « همام » له في انتباه بالغ ومطرقا

وناظرا إليه .

وما انفك الشيخ قائلا : ليلة ما تنوى علي شئ تخبرني ..
وسأرسل لك رجال ومعهم « معبد » ابن أخي وكلهم حاملين
السلاح .

أثلجت كلمات الشيخ صدر «همام» فراح يشكر الشيخ داعيا له
بالحفظ والبركة .

هذا ما كان من أمر الشيخ أثناء زيارته منذ بضعة أيام .

* * *

في ليلة ليلاء حالكة كانت آخر الشهر العربي قام «همام» بإرسال
شقيقه « فواز» وبضعة شباب من ذويهم آخذين النساء والشيوخ
والأطفال جميعا والتوجه بهم إلى « نجع العرب » سرا دون أن يشعر
بهم أحد.

اجتمع «همام» وشقيقه «يونس» وخمسة من أبناء عمومته
وساروا قبل الثلث الأخير من الليل تجاه مخازن الخواجة الكبيرة
والشاسعة .. هاجم «همام» وشقيقه «يونس» خفير المخازن .. سد
«همام» فمه وكتف يده .. وطعنه «يونس» عدة طعنات بالقلب
والصدر وتركوه خلف البوابة الرئيسية جثة هامدة .

تركوا اثنين من الرجال عند البوابة لمراقبة الآتي إليهم واندفع

خمسـة رجال الى داخل المكان يسكبون الزيت والغاز علي البالات والأجولة المتراصة والمتكدسة وظلوا هكذا بعض الوقت حتي انتهوا .

بعدها أشعلوا النيران في كل مكان داخل المخازن .. وابتعدوا عن لهيب النيران والدخان الكثيف وراقبوا المشهد عن قرب ولم يغادروا حتي اطمأنوا على أن النار نشبت في كل ما هو موجود بالمخازن .. ثم غادروا .

استقبلوا « معبد » ورفاقه من رجال « نجع العرب » وأشار لهم «همام» علي دورهم وبيوتهم هو وإخوته وابناء عمومته .

فراحوا يوزعون أنفسهم عليها لسكنائها وحراستها ومنع من يحاول الاقتراب منها – وامسك «همام» بيد « معبد » وأخذه وأطلعه علي دولاب بالحائط به المال الذي يحتاجه وأعطاه مفتاحه وذكر له أشخاصا من المقربين لهم سيجدهم رهن إشارته ليعرفوه جميع أراضيهم الزراعية لكي يقوموا علي زراعتها .. وراح «همام» يوصيه خيرا بالمشروع التعليمي ويؤكد على ضرورة إن يسير ويعمل ويتنظم به الأطفال ، وأخذ يحذره مرارا وهو يقول له : عندي المشروع التعليمي أهم من بيوتنا ودورنا أهم من أراضينا وحتى أرواحنا .

رتب «همام» كل شئ واطمأن تماما ، ومالبث مغادرا تحت جنح

الظلام هو وشقيقه وأبناء عمومته إلي « نجع العرب » ليلحقوا بمن سبقوهم إلي هناك .



عند طلوع الشمس كانت النيران قد أتت علي جميع المخازن بكاملها وبقت تسري جهراتها تحت أكوام الرماد المتفحم .. والخفير ملقي مجندلا في التراب قتيلا عند البوابة الخارجية .

طار الخبر إلي الخواجة فجاء ممتطيا صهوة جواده « برق » في ركابه يلهث رجاله كعادتهم عاين بصره الحسير من الغيظ والذل المكان ، وجده كتلة كبيرة وشاسعة من الفحم والسواد قد غطي كل شئ ، صرخ : يا أولاد الكلب !! .. تجرع من نفس الكأس التي قدمها بالأمس النار الذي أشعلها في ارض غيره واكتوي بها جسد « مخيمر » نشبت هذا الصباح بقلبه هو . وأبصر الخفير وهو ذراعه الأيمن مقتولا ومعفرا في التراب فكسره الخزي والهوان .. هو نفسه الخفير الذي أمسك منذ زمن « أبو العودين » الجوعان والغلبان بحفنات من القمح أراد حملها لأفراخه الجائعة .. فأسلمه إلي سيده الخواجة الذي قتله علي جذع الشجرة وأبي إلا أن يعلقه بحبل مشنوقا تتأرجح جثته .. يا لعدالة السماء !.

وفي وقت وجيز كان الخواجة قد ابلغ السلطات ورفع الامر الي

الحكمدار - واتهم «أولاد» الدرايسي « وابناء عمومته وعلي راسهم المتهم الاول «همام الدرايسي»

تحركت السلطات الآن ، لأن الخواجة أراد لها ذلك .. تحركت لأن محل الاعتداء كانت مخازن الخواجة وخفيرة القتل - أما دون ذلك فلا شيء مهما كان الجرم وبلغت المصيبة .

الآن المجرم « عثمان » مطلوب حيا أو ميتا .. كان ذلك أمرا من الحكمدار شخصا.

جاءت القوة مكونة من خيالة في المقدمة وخلفهم حرس الهجانة السود النوبيين على النوق والجمال .. وآخرين مترجلين وقفوا عند دار أولاد «الدرايسي» وسأل ضابط الخيالة عن «همام وإخوته» تصدي له « معبد » في شجاعة قائلا له :

ليس هنا

- إذن أين هو وإخوته ؟

- ذهبوا عند أهلهم في الصعيد .

- في الصعيد ؟ .. اين تحديدا ؟ .

- لا أعلم .

- وما علاقتك به وبهم .

- لا شيء .. ولا تربطني بهم أي علاقة .. نحن استأجرنا منهم أرضهم ويوتهم ليس إلا .

- هم مجرمون - كيف تعاملت معهم ؟

- لا هم رجال كل الزين .. المصلحة جمعتنا .. هم عرضوا بيوتهم وأرضهم .. ونحن استأجرناها منهم .

- وهل معك ما يفيد ذلك ؟

- نعم .

وأخرج له عددا من العقود وأعطاهها له وبدأ الضابط بتفحصها وقرائها .

وبدأ أولاد عمومة «معبد» يأتون ويقفون خلفه حاملين أسلحتهم وكلما مر الوقت يزداد الحشد وكذلك أهل «مغاغة» رجال ونساء حتي أنهم حاصروا جميع القوة بكاملها.

وما انفك الضابط فارغا من قراءة العقود ورفع رأسه وجد الناس حوله وقوته قد حوصرت بالكامل فارتبك واضطرب وأعاد العقود إلي «معبد» مرة أخرى .. سمع همسات وهمهمات لغيظ مكتوم لدي الناس وسمع شاب هامسا وقائلا : البلد ستولع لو اقترب أحد من دار عم «همام» .

لما رأي قائد القوة ذلك وسمع ما يخشي عقباه عدل عما كان ينوي عليه من تفتيشه للدور والبيوت واكتفي قائلاً «لمعبد» وللناس : ابلغونا باي خبر او معلومة تصلكم .

ولم يجبه أحد.. ثم أمر قواته بالانصراف .. وغادروا .. وسط فرحة جميع الناس وعبارات التقريع والتعريض والتهكم علي الضابط وقواته قال رجل : مع السلامة يا طرايطير الخواجة .

وقال آخر : لا وأنت الصادق « أحذية الخواجة » .

وفجأة اقتحم حشد الناس صبي في الثالثة عشرة من عمره وقف فوق أريكة خشبية أمام منزل أولاد « الدرايسي » كان هذا الصبي هو « سعد ابن ابو العودين » وهو النابه الذي ختم القرآن منذ سنوات ودرس في السيرة والتوحيد وأصبح مفوها ولسنا قال بصوته الطفولي العذب: أيها الناس من الواجب وقفنا مع أولاد « الدرايسي » ومهما فعلنا فلن نوفي حقهم علينا كان لهم الفضل في تعليمنا هم الآن خرجوا من ديارهم لأجلنا .. تحملوا الحرب عليهم لأجلنا.. قتل منهم رجل وحرقت محصولة كان لأجلنا نحن .. لنقف نحن الآن ليس معهم ولكن مع أنفسنا .. لنقف مع أنفسنا .

ورد رجل في حماسة : عشت يا ولد « ابو العودين » وعاشوا أولاد «الدرايسي» ورد الجميع خلفهم : عاشوا عاشوا وقال الصبي «سعد»

بأعلي عقيرته: لنفديك بالروح يا «همام» ورد الجميع خلفه : نفديك بالروح يا «همام» .

قال « معبد » : يا إخوان: أبو الرجال وقت الرحيل من هنا أمني امانة وكان حريص عليها وهي إن المشروع التعليمي يظل يعمل دون توقف ولا ثانية واحدة قال الصبي « سعد » : ليحيا العلم.. ليحيا العلم .

الجميع يردد خلفه : ليحيا العلم .

أشار « معبد » لهم بيده وقال : الي المدارس .

ومشي جميع الناس متجهين حيث الدور المعدة لتعليم أطفالهم.

* * *

درج الزمان في طريقه غير ملتفت «وزين» في حالة من الإعياء والتعب الشديدين وهو علي هذه الحالة يأتيه في أحد الأيام صديقه «الشيخ طه» برسالة آتية من فرنسا أعطاها إلي « زين » الذي قام بفض غلافها بسرعة خاطفة وبدأ يلتهم بعينية كلماتها التي جاء فيها ..

«عزيزي الأستاذ « زين »..

وصلتني رسائلك تقطر شوقا وحنانا ومودة بالغة .. أنت بحق رجل نبيل ولأجل نبلك وعظيم شرفك لن أكتمك سرا .. وبكل

معاني الأسى والحزن أبلغك أن « ماجي » قد ماتت منذ أسبوع فقط
وآخر كلماتها كانت : « زين » حبيبي .. « زين » حبيبي !

خالة ماجي

أطلق « زين » صرخة مدوية أفرغت صديقه « طه » وكاد أن
يصعق لوقعها .. خر علي صديقه وأخذه في حضنه وهو يهزه في عنف
ويخاطبه : « زين » ! .. « زين » ! ..

دون مجيب .. وعيناه شاخصتان وثابتتان .. وأنفاسه تتردد في
صدره ليس إلا.

عاد صديقه مناديا عليه : « زين » .. حبيبي وأخي ..

انعقد لسان « زين » وأصاب جسده بالكامل الشلل .. دون إشارة
أو حركة تصدر عنه .. لم يأل جهدا صديقه في عرضه على الأطباء في
قاهرة المعز .. دون جدوي ولا جديد .

الحالة تزداد سوءا .. أخبر « الشيخ طه » خاله « خليل سعادة »
والذي نصحه بإرجاعه إلى الصعيد بسرعة .

وكان الرجل يعلم الأحداث الأخيرة لتواصله المستمر مع « أهل
مغاغة » بحكم طبيعة تجارته في الخضروات والفاكهة فاتفقا سويا أن

يحملاه علي متن مركب صباحا عبر النيل حتى يصلا به « مغاغة » ليلا فيدخلها تحت جناح الظلام ... لأن « زين » مطلوب القبض عليه هو وباقي إخوته . وبالفعل تحركت المركب في ضحى نهار اليوم التالي .

سارت تشق عباب النيل متجهة إلي الجنوب وظلت تتهادي ملوحة بأشرعتها البيضاء كأجنحة الملائكة حتي جن الليل .

همس « الحاج خليل » لابن أخته « طه » قائلا : الأمور تسير علي ما يرام سندخل « مغاغة » خلصة دون أن يرانا أحد اسمع يا « طه » سننزل قبل « مغاغة » ونسلك طرق زراعية بعيدة عن الأنظار لأن « زين » مطارد و مطلوب ونلف من الجهة البحرية ونقصد الاتجاه الغربي وندخل للبلد من جهة الغرب .. أوما « طه » موافقا لحديث خاله وقال في صوت خفيض : نعم الرأي !.. صحيح .

وصمت الاثنان .

وبدا كل شئ قد كساه الحزن - الليل يلف الوجود .. والنيل بدا حزينا كئيبا .. والنخيل علي شاطئيه كأشباح مخيفة .. لا صوت إلا رياح خفيفة تحف الأشرعة .

نظر « طه » إلى صديقه الملقى علي الأرض بينه وبين حالة « خليل » والحزن يأكل قلبه وفي دهشة غير مصدق لما آلت إليه حالة صديقه

ورفيق دربه .. وراح يتساءل : أهذا هو « زين » ؟ أهو الفتى العفي
القوي هذا الذي كان يملأ الدنيا حيويه وطاقة الذي كان حديثه دوما
ملئى بالأمل والبهجة والفرح ؟! أصبح هكذا .. جثة ! .. يا الله ! .. ما
أسرع تبدل الحال وتغير المآل !.. يا لقسوة الدنيا وتكدر صفوها ..
سافر معي إلى القاهرة منذ بضعة أشهر وهو رجل يملأ السمع والبصر
.. رجلا سنداً وعونا .. الآن أعود به والعدم سواء .. يا لمصابي فيه
ويالفجيعتي !! .

وهو علي هذا الحال شرع المراكبي في الغناء وراح يترنم بكلمات
اغنيته التي تناغمت مع الجو الثقيل الحزين .. ومدت ظلالاً سوداء
فوق سواد الليل البهيم في صوته الشجي الحزين
آه.....آه.....آه.....آه.....آه.....

النيل والليل والويل

النيل الي كان يوافيني ويصافيني ليه الليلة حزين ؟!
والليل الي كانت روحي تشكي له جروحي ليه في قلبي انين ؟!
والويل بقي حضني بعد حبايبي قولولي بس فين ؟!
فين حبايبي فين ؟
فين يا نيل ؟

فين يا ليل ؟

ليه بس فاتوني للويل ؟!

آه....آه....آه....آه

وقع الأغنية سكب الدموع الغزيرة من عين « طه » فبكى بكاء موجعا .

ساروا هكذا في الليل حتي اقتربت المركب من مشارف « مغاغة » وشيئا فشيئا راحت تدنو من المكان .. طلب « طه » وخاله من المركبي أن يميل بهما يمينا نحو البر الغربي قبل « مغاغة » وبالفعل انحرف جهة اليمين حتي وقف عند الشاطئ .. نزلا وحملا « زين » وسارا به بين المزارع في حذر وخيفه في الاتجاه الغربي شمال « مغاغة » وظلا سائرين متوجسين حتي المدخل الغربي القريب من دار « طه » حتي وصلا ودخلا الي البيت .

* * *

سال « زعفران » ابنه والحاج « خليل سعادة » عما يعاني منه « زين » .

أكدا له أنه مرض شديد شله عن الحركة والنطق فجعله علي هذه

الحالة.. حزن « زعفران » حزنا شديدا واغرورقت عيناه ونصحهما بإبلاغ إخوته بسرعة .. فسألاه عن كيفية الوصول اليهم .. هم واقفا وهو يقول : سأخبر « معبد » المقيم بدارهم بعد أن رحلوا .. عساه يعرف طريقه .

وعلي الفور غادر خارجا من الدار .

❖ فوق لبدة مفروشة علي مصطبة تمدد « زين » عليه غطاء صوفي ثقيل .. علق بصره من خلال النافذة علي النخلة في فناء الدار .. وعلى القمر المستلقي فوق الجريد .

❖ أتى « طه » بكوب لبن دافئ ومحلي ثم أسند صاحبه علي صدره وراح يساعده على شربه ... ولكن لم يستطيع ولم يرتشف منه صاحبه رشفة واحدة .. أعاد المحاولة ثانية دون جدوي .

❖ وعيناه عالقتان بالقمر والنخلة لاح له وجه محبوبته «ماجى» بجوار القمر تنظر له مبتسمة بادلها البسمة وفجأة مد يده المشلولة ورفعها ولوح بها .. فرح « طه » مذهولا .. طفق ينادي عليه: «زين» ! .. «زين» ! .. دون إجابة من صاحبه.. نظر « طه » إلي الجهة التي ينظر لها صاحبه وسأله : إلام تنظر يا صاحبي ؟ .. ماذا هناك ؟ .

❖ إلا أن صاحبه مشدوها وعالقا بصره هناك بوجه محبوبته .. والابتسامة لا تبرح مفارقة وجهه.. وبدأ بصره يغيم شيئا فشيئا ...

وبدا الوجه شبها معتما وما انفك غائبا عنه .

❖ غمغم « زين » بكلمات متقطعة : مم اا ج ماج...ماج ! ، ثم
القي راسه وفاضت روحه .. وسكن الجسد المنهك الى الابد .

❖ « طه » وهو يبكي ويغطي وجه صديقه .. وأري الوجه
الوسم الجميل الطلعة بعدما امتص الموت جذوة الحياة المتقدمة
وألقاه كالرماد !! .. اغتال الموت ربيع حياته فأسلمه للرياح العاصفة
أوراقا يابسة !!.

❖ وشرع « طه » يبكي صاحبه ورفيق دربه ويرثيه قائلا : ليتك
ما تمنيت .. إن اليأس القاتل ما دلف إليك الا من باب المني
الكاذب .. ليتك ما أحببت .. إن الطعنة النجلاء أتتك من يد الحب
القاتل ! ما لي أري الوجود بعدك حزينا كئيبا والأرض عادت سيرتها
الأولي خرابا لا يمشي عليها حيوان ولا يخطر فوق أديمها إنسان ؟!
.. ولا اسمع إلا صوت الزعيق والعويل !!.

❖ ارتفع صوت بكاء « طه » فأيقظ خاله « الحاج خليل سعادة .
« .. فزع الرجل وراح يحتضن « طه » ويهدئ من روعه واندفع « طه »
مرددا : مات يا خالي .. مات « زين » يا خالي .

❖ كفكف الرجل بعبرات مجيبا : البقاء لله يا ولدي .. إنا لله
وإن إليه راجعون ..

❖ عاد « زعفران » بعدما أبلغ « معبد » .. وعند طلوع النهار كان « همام » وشقيقه « فواز » و « يونس » وابناء عموماتهم و « الشيخ النجداوي » وبصحبتهم مئات الرجال المسلحين - أتوا وكأنهم جيش فاتح وقد استقبلهم أهل « مغاغة » ونواحيها بالفرح والتهليل وانضموا إليهم وساروا إلى دار « زعفران » .

❖ دخل « همام » وشقيقاه حيث جثمان أخيه .. أزاح « همام » عن وجهه الغطاء وراح يمطره بسيل من القبلات باكيا وبجواره أخواه يبكيان أيضا وسال « همام » « الشيخ طه » عن مرض « زين » وما حدث له فحكى له « طه » كل شي بالتفصيل وقد أتى علي قصة حبه لابنه الخواجة وما جري من أحداث - حتي ماتت غريبة في « باريس » وما أصاب « زين » بعدها وحتى عاجلته المنية ليلة أمس .

❖ أمر « همام » بنقل جثمانه إلى دارهم لكي تخرج جنازته من دار أبيهم وأشيع خبر وفاة « زين » فجاءت « مغاغة » عن بكرة أبيها تشارك أولاد « الدرايسي » في مصابهم الجلل .. الرجال والنساء والأطفال . تناهي الخبر إلى جميع نواحي « مغاغة » وقراها وحتى الغروب فجاء « الشيخ خضر الغرباوى » ومعه وفود من أهل الغرب وكذلك مشايخ وعمد طنبدي وشم ودهروط وشارونة ونزله بلهاسة وبلهاسة .. وبعد مدة خرجت الجنازة محمولة علي أكتاف الرجال صانعة مشهدا مهيبا وجليلا لا يبصر الرائي آخر الحشود .. وطغى

علي المشهد صوت الباقيات والنائحات.

❖ في الحقيقة الجميع بكى في هذا اليوم لفقد شاب صالح ومليء بالخير .. مقدم و لكم ساهم في تعليم أبناء « مغاغة » .

❖ تم دفن الجثة وعاد « همام » وشقيقاه والجميع حيث جلسوا في سرادق العزاء ..

❖ نعي الشيخ « طه » صاحبه ورفيق دربه بعد أن فرغ من دفنه
قائلا :

❖ كفي حزنا بموتك إني قـ... دنفضت تراب قبرك من يديا.

❖ وكانت لي في حياتك عظات .. فأنت اليوم أوعظ منك حيا .

❖ ما كانت القوات ولا السلطات لتستطيع أن تفعل شيئا إزاء أولاد « سليم الدرايسي » .

❖ فالكل معهم المشرق والمغرب إضافة الي « مغاغة » والجميع يحمل سلاحه حسباً لمقدرته .

❖ إن المخاطرة ستكون وخيمة العواقب .. وأول الهلكي هي تلك القوات مهما كانت .. فبقوا بعيدا يتابعون ويراقبون ما استطاعوا.

❖ وإزاء هذا الوضع الخطير فكر همام بتوجيه ضربة أخيرة

وقاضية للخواجة .. وبنظرته الثاقبة أدرك حالة الزخم والالتفاف الشعبي وتوحد الناس .. فأيقن انها لحظات فارقة لا بد من اغتنامها ! اجتمع بالشيخ « النجداوى » وهمس له ؟ اسمع ياعم الشيخ ، إما نصره أو كسره !! .. ، استغرب الشيخ وسأله : ما قصدك يا ولدى ؟ أجابه « همام » فى احتداد وحماسة : إما نعيش أحرارا أسيادا فى أوطاننا كالرجال وإما نضل والمواشي سواء .

❖ انتفض الشيخ « نجداوى » لوقع كلماته واندفع غاضبا وقائلا : أبدا .. والله أبدا .. لن يكون .. ولدنا رجالا وسنعيش رجالا وسنموت رجالا أحرارا .. نحن رجال زين .. ونحن أمامك يا ولدى .. انظر ما انت قادم عليه وسنتبعك ..

❖ ابتسم « همام » فى رضا لوقع كلمات وحماس الشيخ فراح يربت على كتفه مقبلا رأسه وقائلا : سلمت يمينك ياعم الشيخ « نجداوى » وصمت « همام » وبدت ملامح الجد بادية عليه وعاد هامسا للشيخ : ياعم الشيخ « نجداوى » عليك أن تجمع ما تستطيع جمعه من قبائل العربان فى الجبل الغربى وفى محيط بنى سويف ، والفيوم ، والمنيا .

❖ أوماً الشيخ فى رضا موافقا وقائلا : اعتبر الجميع موجودين وبسلاحهم ياولدى . ثم صمت الشيخ برهة وعاد سائلا : علام تنوى يا « همام » يا ولدى ؟ ..

❖ أجابه «همام»: سأخبرك حينها ياعم الشيخ .. اطمئن أنت أول من تعلم بأى شئ قبل حتى اخوتى .. سوف أرسل لك وأخبرك قبيل لحظات التحرك الأخيرة ..

❖ هز الشيخ رأسه مسلما بالأمر وراضيا وهو يقول : أمرك يا ولدى .. كما تحب وترغب .

❖ اجتمع «همام» وأولاد «الجبلاوى أبو خطوة» وشقيقه «يونس» فى دار أولاد «الجبلاوى أبو خطوة» سرا وبالليل ومعهم جميع آباء من تعلم من أولادهم بدار أولاد «سليم الدرايسى» .. الجميع مملوء بالشجاعة والثقة والحماسة وابدوا استعدادهم ومباركتهم لاي أمر يوافق رغبة «همام الدرايسى» ويقبل عليه .. حدثهم «همام» إنهم جميعا فى مركب واحد إما أن يقفوا فى وجه تلك الرياح العاتية وإلا ستغرق ويغرق الجميع .. رد الصبى اللبق اللسن سعد ابن أبو العودين : على بركة الله ياعم «همام» .. نحن فداءك .. قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هذا معتقدنا كما أخبرنا به رب العالمين ..

❖ والجميع فى صوت واحد : نحن معك فى أى أمر يا أبو الرجال وأرسل «همام» رجاله وذويه إلى الشيخ «خضر الغرباوى» ولمكانة الرجل الدينية والأدبية فقد التف حوله جميع قرى الغروب - برطباط ، والقايات ، وطنبدي ، والشموم ، آبا ، دهروط .. وقفادة ،

وكذلك ملاطية ، وميانة ، وباقي القرى في محيط « مغاغة » .. وكان لبلدان شرق النيل موقف شجاع والذين وقفوا بقلوبهم وقواربهم فقطعوا الطريق المائي وأصابوه بالشلل التام فمنعوا الملاحة شمالا وجنوبا خلال النيل السعيد - وكانت البداية منهم .

❖ أرسل همام للشيخ « النجداوى » بأن يقود القبائل ويطوق القوات من الناحية الغربية ويقبض على كبيرهم ويتحفظ عليه دون أى أذى أو إهانة له .. وأهل الغروب جميعا بقيادة « نعاس الشلابى » وهو رجل الشيخ « خضر الغرباوى » من ناحية الجنوب وبداية من قرية « الشيخ زياد » ليفعل بالقوات الموجودة كما سيفعل « الشيخ النجداوى » وقبائل العربان ..

❖ ومن الشمال يطبق أهل « ملاطية ، وميانة ، ودهمرو ، وسلاقوس ، وصفانية .. وباقي العزب التابعه لهم .

❖ وانضم « همام » وشقيقه « يونس » وأولاد عمومتهم إلى معسكر « الشيخ النجداوى » .. ومن مكانه يبعث برسله إلى الآخرين في مختلف الجبهات .. وطوق أهل الشرق القوات من جهة الشرق - بينما تولى « معبد » ورفاقه حراسة بيوت أولاد « سليم الدرايسى » وانضم إليه أهل الداخل في « مغاغة » وحاصروا قصر الخواجة ومنعوه من الخروج .

❖ عند ذلك بدت « مغاغة » ومحيطها منطقة معزولة عن القطر المصرى وأصيب الصعيد الداخلى بالشلل التام لقطع جميع الطرق إليه وخاصة الحركة فى النيل السعيد .

❖ تناهت الأخبار إلى « قاهرة المعز » وتناولت الصحف فى مطلع صفحاتها أخبار « مغاغة » فقلق الوضع « الخديوى » والذى أرسل مستشاريه إلى « مغاغة » وطلبوا مقابلة الشيخ « خضر الغرباوى » وكذلك « همام الدرايسى » ولكنهما رفضا مقابلتهم والحديث إليهم وأبلغوهم أن الخديوى - حاكم مصر ليس هو المعنى بذلك - وإنما من يعينهم هو سلطان الباب العالى .. ولكن الخديوى لا يقدم ولا يؤخر لديهم ..

❖ إن مظلالمهم ليس مؤهلا لها أفندينا وإنما الباب العالى فى تركيا .. رجع مستشارو الخديوى إليه يبلغونه الأمر فارتعد واضطرب ولم يقو على الحديث والمخاطبة .. ازدرد ريقه وصمت ساهما واجما .. ثم قلب الامر على جميع الوجوه فرأى من الحكمة التودد والملاطفة إزاء هذا الوضع الخطير حتى لا تندلع الاحتجاجات والتمرد فتعم مصر المحروسة ثم خاطب مستشاريه قائلا : بلغوهم بأن حضراتنا سوف أذهب إليهم فى الصعيد لأسمع شكواهم ومطالبهم .

❖ وبالفعل عاد مستشارو الخديوى ليخبروا من فى « مغاغة »

بقدوم الخديوى إليهم فى حال موافقتهم على ذلك .

❖ إزاء هذا العرض من قبل مستشارى الخديوى ، اجتمع «همام» والشيخ «خضر الغرباوى» وكذلك الشيخ «النجداوى» وبعض عمد ومشايخ بلاد الغرب من طنبدى ، ودهروط ، وآبا ، وشم ، ولما كادوا أن ينتهوا إلى رفضهم مقابلة الخديوى ، وقف فيهم «همام» وأثنى على الجميع ورفع مكانتهم من الاحترام والتبجيل لديه ثم أردف قائلاً : احترامى لسادتى وإخوانى ولكن هناك مثل يقول : لوح بعصى العز ولا تضرب بها .. ويكفيننا عزة ومنعة بأننا اجتمعنا جميعا على قلب رجل واحد .. لقد بقيت لنا إرادة وعزيمة يقودهما الفكر والوعى وهذا ما يملؤنى فخرا ياسادتى .. لقد نجحنا بالفعل إذ رعبنا أكبر رأس فى البلاد لنقرر نحن مقابلته .. فليس من الحكمة الرفض .. ولا خسارة مطلقا مع القبول .. نتحدث إلى الرجل ولنرى ما هو صانع .. إن وافق مبتغانا فيها ونعمت وإلا التهديد وتصعيد الاحتجاج ..

❖ هز الجميع الرؤوس موافقة لرأى «همام» وما لبث الشيخ «خضر الغرباوى» قائلاً : نعم الرأى يا «همام» يا ولدى .. انه القول السديد .. إذن فلنقابل الرجل . وافق الجميع وحددوا المقابلة بعد ثلاثة أيام فى المسجد الكبير «بمغاعة» عقب صلاة عصر ذلك اليوم.

❖ وتم إبلاغ رسل الخديوى بالموافقة وبتحديد الزمان والمكان .. وبعده جلس « همام » والشيخ « خضر الغرباوى » وكذلك الشيخ « النجداوى » وبعض عمد ومشايخ قرى الغرب وقد اتفقوا فيما بينهم على إن الموجودين هم المعنيون بمقابلة الخديوي - وعنهم سيتحدث كلا من الشيخ « خضر الغرباوى » و « همام الدرايسي » ويعرضوا مظالم وشكاوى أهل « مغاغة » وما فعل «الخواجة حبيب » بالناس ومحاصرة القوات للدور والمنازل .

❖ عند ذلك صمت « الشيخ بركات » وابتسامة حلوة بدت على محياه ثم قال : إنها لحظات فارقة .. تلك اللحظات التى يجتمع فيها الناس على قلب رجل واحد .. لحظات نادرة فى تاريخ الأمم من هذه اللحظات لكى تأتى وتصبح واقعا يلزمها تضافر الجهود واجتماع عوامل كثيرة ، قاطعه « سالم » : ماهى تلك العوامل ياعمى ؟ أشار عليه « الشيخ بركات » بالصبر ودون مقاطعة لحديثه .. ثم هز رأسه فى عظة وتدبر والابتسامة الحلوة لاتفارقه وقال : الوعى والإدراك اللذان يحركان الشعور العام والعزيمة والإرادة الماضيتين . وحسن التخطيط والتدبير من قيادة واعية .. إن كل ذلك لا يأتى ولا يتحقق فى طرفة عين وانتباهتها لكن حصيلة سنوات طويلة من العرق والجهد نحو التنوير ، وغرس مبادئ وتعليم جيل بأكمله . إن اللحظات الفارقة فى تاريخ الأمم قد لاتتحقق مطلقا .. وقد تقع

حينما تغدو أمرا مقضيا لا مصرف عنه إذا اجتمعت لوقوعها كافة أسبابها وتواجد المناخ الذى يظلمها ويضمها وترعرع فيه .

❖ وطفق « مأمون » متلهفا ومندفعا :

❖ المهم ما حدث بعد ذلك ياعمى .. ما الذى حدث ؟

❖ وعاد « الشيخ بركات » سيرته الأولى ليقص ويحكى فى أسلوبه الشائق والأخاذ .

❖ مرت الأيام سريعا وخرجت « مغاغة » فى استقبال موكب « الخديوى » يتقدم حرسه الملكى .. والموكب يمر بين الهتافات وعبارات الترحيب بالضيف الكبير حتى وصل إلى المسجد الكبير .. توقف الموكب .. ونزل الخديوي يتقدم حرسه .. اصطف عمد ومشاريخ وقرى « مغاغة » وتوسطهم « الشيخ خضر الغرباوى » و«همام الدرايسى» وسلم الخديوى على الجميع ودلف خلف حرسه إلى المسجد واتبعه الجمع المصطف وباقى الناس

❖ اجلسوا الخديوي فى المقدمة ومن حوله حرسه

❖ تم تلاوة ماتيسر من القرآن ..

❖ تم وقف الخديوى فى مواجهة الجميع متحدثا بعد أن حمد الله وأثنى عليه قائلا : الشكر لاهل مغاغة على حسن الترحيب بي والشكر موصول لهم إذ استقبلونى فى بيت الله فمنحونى شرف

الضيافه في كنف رب العالمين .. وجئت إليكم لأسمع طلباتكم وهو واجبي نحوكم فتفضلوا .. وختم وسلم .

❖ حث « الشيخ خضر » - « همام » على أن يقف متحدثا ولكن « همام » رفض اكراما لمنزلة الرجل وفضله وكبر سنه بيد أن الشيخ خضر أقسم عليه أن يتقدم للحديث فلم يجد « همام » بدا بعد قسم الرجل - فتوقف متحدثا وقائلا :

❖ « أعز الله مولاي وأدام ملكه .. لا أحد منا يستطيع تقدير شرف ضيافتكم ولا أن يوفيها حقها وقدرها .. وحتى لا ينفرد أحد بهذا الشرف فيتباهى به على الآخرين في مقبل الأيام - فأثرنا جميعا أن ضيافتكم تكون لدى أكرم الأكرمين ورب العالمين .

❖ استحسنت منه الخديوى حسن بيانه وعذوبة حديثه ووقع إعجابه في نفسه فراح صاغيا له وعالقا بصره به .

❖ واصل « همام » حديثه فجاء على الجرائم التى اقترفها الخواجه وكيف أنه استولى على أراضي الناس ظلما وعدوانا .. وممر على جريمه قتل « ابو العودين » الجوعان و العريان وكذلك قتله « الجبلاوي أبو خطوة » والتمثيل بجثتيهما .. أن وصف « همام » للجرائم ودوافعها كان له أبلغ الأثر في نفس الخديوي - إذ فاضت عيناه بالدموع ، من هول ماسمع ثم جاء على ذكر حصار القوات

للدور والمنازل و « مغاغة » بكاملها بامر الحكمدار - حماية للخواجة « حبيب » وتلبية لرغبته - وتماديا في قهر الناس وظلمهم .. ثم ختم « همام » خطابه قائلا وسائلا الخديوي : حدث ذلك ووقعت كل هذا الجرائم وعين حضرتكم حارسة لهذه البلاد .. تم ارتكاب كل هذه الفظائع في غيبة عدالتكم .

❖ عندها انتفض الخديوي غاضبا واندفع سائلا في دهشة وغرابة : أو معقول ؟ .. وقعت فعلا هذه الجرائم ؟ ... اندفع الجميع في المسجد من أهل « مغاغة » يؤكدون له ما حدث .. فلما اطمأن إلى صحه جميع الروايات وتحقق من وقوع هذه الجرائم أصدر الأمر لحرسه وبمساعدة من القوة المتواجدة بالقبض على الخواجة والتحفظ عليه وتجريده من ألقابه ومصادرة جميع أراضيها وتوزيعها على الفلاحين - وعزل حكمدار الأمن وجميع القادة الذين وقفوا على تحريك هذه القوات وحاصروا البيوت والمنازل ومدخل ومخارج « مغاغة » .

❖ ورأى أهل « مغاغة » جميعا الخواجة « حبيب » موثوقا ومجرورا من حرس الخديوي تنهال عليه اللعنات والسباب والشتائم خزيانا وذليلا ومأخوذا نحو المجهول - حتى تم نفيه خارج البلاد مجردا من كل شيء كأنه سيق إلى لحده .

❖ ودعت « مغاغة » الخديوي بالفرح والزغاريد والدعوات

بدوام عزه ومملكه .. ثم فرغ الناس للاحتفاء بأبو الرجال « همام الدرايسي » وحملوه على الاعناق وهو يصرخ في الناس : لا .. لا .. بل احملوا عم « الشيخ نجدادوى » و « معبد » و « الشيخ خضر الغرباوى » .. والفتوة « نعاس الشلابى » أنا المدين لكل هؤلاء الرجال .. وعمد ومشايخ البلاد من يستحقون كل التقدير والناس جميعا وأهل الشرق والغرب .. بارك الله في الجميع « عند ذلك صمت الشيخ وهو يهز رأسه في عظة وتدبر .. وفي إعجاب وفخر نظر الثلاثة إلى « الشيخ بركات » وهم في حالة من الانبهار الشديد ومعقودي الألسنة ! .

❖ خرج « الشيخ بركات » عن صمته قائلاً : هكذا كان « همام الدرايسى »

❖ بعيد النظر واسع الحيلة .. شجاعاً ذكياً .. وصاحب عزيمة وإرادة ماضيتين .. وكان حوله رجال بحق لم يتخلفوا عنه في أى أمر .

❖ ثم ندت على وجه « الشيخ بركات » زفرة أسى طويلة وطن رأسه ببيت الشعر الذى نعى به الشيخ « طه » صديقه « زين » .

❖ وكانت لى في حياتك عظات فأنت اليوم أوعظ منك حيا

❖ فهمس الشيخ فى إيمان وتسليم وقائلاً :

❖ « نعم .. كفى بالموت واعظاً ! »

تمت بحمد الله

الكاتب / محمد عبدالعليم

المحامي

مغاغة - طنبدى

